سلسلة السيرة النبوية لكل الأعمار :

(4)

غزوة أحد

إعداد الدكتور

رجب محمود بخيت

دار العلم والإيمان

للنشر والتوزيع

239

ب . ر

رجب محمود بخيت ،.

السيرة النبوية لكل الأعمار(غزوة أحد)/ رجب محمود بخيت.- ط1.- دسوق: دار

العلم والإيمان للنشر والتوزيع.

136 ص ؛ 17.5 × 24.5سم .

تدمك : 978 – 977 – 308 – 589 - 6

1. السيرة النبوية .

أ -العنوان .

رقم الإيداع :1972

الناشر : دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

دسوق - شارع الشركات- ميدان المحطة – بجوار البنك الأهلي المركز

E-mail: elelm_aleman@yahoo.com

elelm_aleman2016@hotmail.com

2018

الفهرس

قائمة المحتويات

سريّة بئر معونة
إجلاء بني النضير
غزوة ذات الرقاع:
غزوة بدر الموعد:
غزوة دومة الجندل :
غزوة بني المصطلق

غزوة أحد سنة 3 هـ :

سبب المعركة :

يرجع وقوع هذه الغزوة إلى جملة من الأسباب المتداخلة، أبرزها رغبة قريش في الانتقام من المسلمين لقتلاها يوم بدر حيث كانت قد فقدت صناديد رجالها ولحق بها عار الهزيمة المنكرة إضافة إلى ما فقدته من أموالها التي غنمت، ومكانتها التي تهاوت وسمعتها التي مرغت في الوحل. يضاف إلى ذلك ما كان يشعر به زعماء قريش من أخطار تهددهم وتجارتهم التي كادت أن تتوقف مع بلاد الشام بعد أن تحكم المسلمون في كافة طرق التجارة الداخلية والساحلية، وخاصة بعد أن فقدوا أملهم الأخير في سلوك طريق العراق، وما جرى في سريّة القردة حين غنم المسلمون تجارتهم وعيرهم وقطعوا عليهم آخر طريق كانوا يؤملونه لاستمرار سير تجارتهم وهذا ما زاد النار إذكاء في قلوب قريش ، وزودها من الحزن والهم ما لا يقادر قدره وحينئذ زادت سرعة قريش في استعدادها للخوض في معركة تفصل بينهم وبين المسلمين .

هذا إلى جانب تعنت قريش وإصرارها على دين الآباء والأجداد ومقاومتها التوحيد، وحقدها التاريخي على الرسول ص والمسلمين الذين أفلتوا من قبضتها فأصبحوا لها ندّا يناصبونها العداء ويقطعون عليها سبل حياتها.

وكانت استعدادات قريش لحرب المسلمين قد بدأت مبكرة في أعقاب هزيمتها في بدر، فقد رصدوا أموال تجارتهم التي تمكن أبو سفيان من الإفلات بها قبيل معركة بدر مع أرباحها لتجهيز جيش الثأر وقالوا للذين كانت فيها أموالهم : يا معشر قريش، إن محمداً قد وَتَرَكُم وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه لعلنا أن ندرك منه ثأراً، فأجابوا لذلك، فباعوها، وكانت ألف بعير، والمال خمسين ألف دينار وفي ذلك أنزل الله تعالي : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ [سورة الأنفال: الآية 36] (1)، ثم فتحوا باب التطوع لكل من أحب المساهمة في غزو المسلمين من الأحابيش وكنانة وأهل تهامة، واتبعوا وسائل عدة في التحريض والحض علي مقاتلة المسلمين ، حتى إن صفوان بن أمية أغري أبا عزة الشاعر ـ الذي كان قد أسر في بدر، فَمَنَّ عليه رسول الله ص وأطلق سراحه بغير فدية، وأخذ منه العهد بألا يقوم ضده ـ أغراه على أن يقوم بتحريض القبائل ضد المسلمين، وعاهده أنه إن رجع عن الغزوة حياً يغنيه، وإلا يكفل بناته فقام أبو عزة بتحريض القبائل بأشعاره التي كانت تذكي حفائظهم، كما اختاروا عمرو بن العاص، وهبيرة المخزومي، وابن الزبعرى لنفس المهمة ، وقد حقق هذا التحريض نتائج كبيرة

1) ابن هشام، السيرة ، 3/ 1، الواقدي ، المغازي ، 1/ 200، ابن إسحاق ، السيرة ، ص322.

حيث تسابق القرشيون علي المشاركة في دفع نفقات المعركة التي بلغت خمسين ألف دينار ذهباً ، وجمعوا ثلاثة آلاف مقاتل من أبنائها وحلفائها من كنانة وأهل تهامة ، (2)، بينهم مائتا فارس وسبعمائة دارع (3)، وجعلت على قيادة الميمنة خالد بن الوليد، وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل (4)، وصاحب الجيش عدد من نساء قريش لغرض إثارة الحماس ومنع المقاتلين من التفكير بالفرار خشية العار ، فخرج ابو سفيان - وأشد تأليباً على المسلمين بعدما رجع من غزوة السّوِيق خائباً لم ينل ما في نفسه - وهو قائد الناس بهند ابنة عتبة بن ربيعة، وخرج صفوان بن أمية بن خلف ببرزة ابنة مسعود الثقية، وخرج عكرمة بن أبي جهل بأم حكيم بنت الحارث بن هشام بن المغيرة، وخرج الحارث بن هشام بن المغيرة بفاطمة بنت الوليد بن المغيرة....و تحرك الجيش المكي بعد هذا الإعداد التام نحو المدينة، وقلوبهم يملأها الحقد علي المسلمين والرغبة في الثأر منهم ، ونزلوا ببطن السبخة من قناة على شفير الوادي مما يلي المدينة (5).

---

2) ابن هشام، السيرة ، 84/3، الواقدي، المغازي ، 101/1، أبو فارس ، غزوة أحد ، ص17.
3) ابن هشام ، السيرة ، 87/3، الطبري ، تاريخ ، 3/ 502 من رواية الواقدي.
4) ابن هشام ، السيرة ، 3/ 8- 12، الطبري ، تاريخ ، 3/ 504.
5) ابن هشام، السيرة ، 3/ 87 برواية ابن إسحاق دون إسناد، الطبري، تاريخ، 3/ 504، الواقدي، المغازي ، 1/ 201، ابن سعد، الطبقات ، 2/ 37.

استطلاع أخبار قريش:

وكان النبي - ص- يتابع أخبار قريش بدقه بواسطة عمه العباس، قال ابن عبدالبر: (وكان - ا - يكتب بأخبار المشركين الى رسول الله - ص- وكان المسلمون يتقوّوْن به بمكة، وكان يحب أن يقدم على رسول الله صكتب إليه رسول الله - ص- أن مقامك في مكة خير) (6) ، فلما تحرك هذا الجيش بعث العباس رسالة مستعجلة الى الحبيب محمد -ص-، ضمنها جميع تفاصيل الجيش وأسرع رسول ص العباس بإبلاغ الرسالة، وجدّ في السير حتى إنه قطع الطريق بين مكة والمدينة -التي تبلغ مساحتها الى خمسمائة كيلومتراً- في ثلاثة أيام وسلم الرسالة الى النبي - ص- وهو في مسجد قباء(7)، وجاء في رسالته: (إن قريش قد أجمعت المسير إليك فما كنت صانعاً إذا حلّوا بك فاصنعه، وقد توجهوا إليك وهم ثلاثة آلاف وقادوا مائتي فرس وفيهم سبعمائة دارع وثلاثة آلاف بعير وأوعبوا(8) من السلاح) (9).

---

6) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، 812/2

7) المباركفوري ، الرحيق المختوم، ص250.

8) أوعبوا: خرجوا بجميع ماعندهم من السلاح.

9) الواقدي ، المغازي ،204/1

وتأكيداً للخبر أرسل الحبيب محمد -ص- الحُباب بن المنذر بن الجموح إلى قريش يستطلع الخبر، فدخل بين جيش مكة وحزر عَدَده وعُدَدَه ورجع، فسأله رسول الله -ص-: مارأيت؟

قال: رأيت يارسول الله ص عدداً، حزرتهم ثلاثة آلاف يزيدون قليلاً أو ينقصون قليلاً، والخيل مائتي فرس، ورأيت دروعاً ظاهرة حزرتها سبعمائة درع، قال: (هل رأيت ظعنا؟) قال: رأيت النساء معهن الدفاف والأكبار(10)... فقال رسول الله - ص-: (أَرَدْن أن يحرَضنّ القوم ويذكرونهم قتلى بدر، هكذا جاءني خبرهم لاتذكر من شأنهم حرفاً، حسبنا الله ونعم الوكيل، اللهم بك أجول وبك أصول) (11).

10) الأكبار: جمع كَبَر: والكَبَر، هو : الطبل الذي له وجه واحد وهو فارس معرب.
11) الواقدي ، المغازي ،207/1 -208

مشاورات النبي ص لأصحابه في أمر القتال :

ولما تيقن الحبيب محمد فمن الخبر، شاور أصحابه في كيفية مواجهة الموقف، وحيث إن المدينة كانت قد شبكت بالبنيان فهي كالحصن ، وكان النبي ص يرى البقاء والتحصّن فيها، وقال: «إنّا في جنّة حصينة» (12)، فإن رأيتم أن تقيموا وتدعوهم حيث نزلوا، فإن أقاموا أقاموا بشر مقام، وإن دخلوا علينا قاتلناهم فيها. وكان رأي عبدالله بن أبي بن سلول مع رأي رسول الله - ص- وقد أبدى بعض أصحابه من الأنصار - ممن كان فاته بدر - كراهة القتال في طرق المدينة وقالوا: «وقد كنا نمتنع من الغزو في الجاهلية، فبالإسلام أحق أن نمتنع منه، فابرز إلى القوم» (13).

انطلق رسول اللّه ص فلبس لامته. وتلاوم القوم وقالوا: «عرض نبي الله صبأمر وعرّضتم بغيره، فاذهب يا حمزة فقل لنبي الله ص: «أمرنا لأمرك تبع» فأتى حمزة فقال له: «يا رسول اللّه ص إن القوم قد تلاوموا فقالوا: أمرنا لأمرك تبع» فقال رسول اللّه ص: « إنّه ليس لنبيّ إذا لبس لامته أن يضعها حتّى يناجز» (14).

12) أحمد، المسند، 3/ 351، الفتح الرباني 21/ 51- 52، الطبري- تفسير 7/ 372 بإسناد حسن إلى قتادة، وقد جاء بطرق عديدة وبمجموع الطرق يصح الحديث، وانظر: البيهقي- دلائل النبوة 3/ 204، 308، الصنعاني- المصنف 5/ 364- 65، الحاكم- المستدرك 2/ 128- 129، 296- 97، ابن سعد- الطبقات 2/ 38.

13) الطبري، تفسير 7/ 372.

14) ابن هشام ، السيرة النبوية ، 71/3

ما من شك أن رأي الحبيب محمد ص كان هو الأصوب ، إلا أن الحبيب محمد ص أراد أن يؤصل مبدأ الشوري ويضرب لنا المثل والقدوة من نفسه كقائد للمسلمين ، وامتثالاً لأمر الله عز وجل حينما قال :

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ[سورة آل عمران: الآية 159] .

وهذا الموقف يثبت أن الحبيب محمد - ص– قد عوّد أصحابه على التصريح بآرائهم عند مشاورته لهم حتى ولو خالفت رأيه، فهو إنما يشاورهم فيما لانص فيه تعويداً لهم على التفكير في الأمور العامة ومعالجة مشاكل الأمة، فلا فائدة من المشورة إذا لم تقترن بحرية إبداء الرأي، ولم يحدث أن لام الرسول - ص- أحداً لأنه أخطأ في اجتهاده ولم يوفق في رأيه، وكذلك فإن الأخذ بالشورى ملزم للإمام، فلابد أن يطبق الرسول - ص- التوجيه القرآني لتعتاد على ممارسة الشورى وهنا يظهر الوعي السياسي عند الصحابة ي، فرغم أن لهم إبداء الرأي

إلا أنه ليس لهم فرصة على القائد فحسبهم أن يبينوا رأيهم ويتركوا للقائد حرية اختيار مايترجح لديه من الآراء فلما رأوا أنهم ألحوا في الخروج وأن الرسول - ص- عزم على الخروج بسبب إلحاحهم عادوا فاعتذروا إليه، لكن الرسول الكريم ص علمهم درساً آخر هو من صفات القيادة الناجحة وهو عدم التردد بعد العزيمة والشروع في التنفيذ فإن ذلك يزعزع الثقة بها ويغرس الفوضى بين الأتباع(15).

لبس النبي ص درعين، رغم علمه بأن الله تعالى يعصمه من القتل تعويدا للأمة على الأخذ بالأسباب المادية ثم التوكل على الله (16). وعقد فراية سوداء وثلاثة ألوية أحدها للمهاجرين والثاني للأوس من الأنصار والثالث للخزرج منهم وحمل مصعب بن عمير لواء المهاجرين، وأسيد بن حضير لواء الأوس، والحباب بن المنذر لواء الخزرج (17).

وانتظمت قوات المسلمين التي قدرت بألف مقاتل بما فيهم المنافقون المتظاهرون بالإسلام ومعهم فرسان فقط ومائة دارع تحت قيادة النبي ص وتحركت تاركة المدينة من الجانب الغربي من الحرة الشرقية (18).

---

15) السيرة النبوية الصحيحة ، 380/2
16) الحاكم، المستدرك ، 3/ 25.
17) خليفة بن خياط ، تاريخ، ص 67، الواقدي، المغازي ، 1/ 33، ابن عبد البر، الاستيعاب ، 3/ 540
18) ابن هشام ، السيرة ، 3/ 8- 12.

انسحاب المنافقين من جيش المسلمين :

وقد انسحب من جيش المسلمين المنافق عبد اللّه بن أبيّ بن سلول وثلاثمائة من أتباعه المنافقين، بدعوى أنه لن يقع قتال مع المشركين، ومعترضا على قرار الرسول

ص بالخروج من المدينة لملاقاة المشركين بقوله «أطاع الولدان ومن لا رأي له، أطاعهم وعصاني، علام نقتل أنفسنا» (19).

وعمل عبد الله بن أبي هذا ينطوي على خيانة عظيمة، وبغض للإسلام والمسلمين، وقد اقتضت حكمة الله أن يمحص الله الجيش ليظهر الخبيث من الطيب حتى لايختلط المخلص بالمغرض، والمؤمن بالمنافق ، قال تعالى مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ [سورة آل عمران: الآية 179]

19) البخاري، الصحيح (حديث 4050)، ابن هشام، السيرة، 2/ 92، الواقدي، المغازي، 1/ 219، ابن سعد، الطبقات، 2/ 39، البيهقي، دلائل، 3/ 208.

فالجبن والنكوص هما اللذان كشفا عن طوية المنافقين فافتضحوا أمام أنفسهم وأمام الناس قبل أن يفضحهم القرآن(20) .

وقد انقسم الصحابة في مسألة قتال هؤلاء المنافقين ، ففريق يرى قتل المنافقين الذين خذلوا المسلمين بعودتهم وانشقاقهم عن الجيش، وفريق لايرى قتلهم (21)، فأنزل اللّه تعالى: فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ الله صلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا [سورة النساء: الآية 88]

وقد حاول الصحابي عبد اللّه بن عمرو بن حرام تدارك الأمر فلحق بالمنافقين المنسحبين، وحاول إقناعهم بضرورة نصرة نبيهم وقومهم، غير أنهم أصروا على موقفهم، وقالوا له: «لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم»، وبعد أن يئس عبد اللّه منهم سأل اللّه أن يبعدهم، وأن يغني اللّه نبيه عنهم (22)، وقد أشار القرآن إلى ذلك في قوله تعالى:

20) محمد عيظة بن سعيد ،غزوة أحد دراسة دعوية ، ص84 ، حسين أحمد ، مرويات غزوة أحد ، ص71.
21) البخاري، الصحيح (فتح حديث 4050)، الطبري، تفسير، 9/ 7- 9.
22) ابن هشام، السيرة ، 3/ 9.

وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (166) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا ۖ قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (167) [سورة آل عمران: الآية 166-167]

وكاد بنو سلمة من الخزرج، وبنو حارثة من الأوس، وهما طائفتان من المسلمين، ورفضا أن يتخاذلا وينسحبا مع المنافقين، وفكروا جدياً في التراجع إلى المدينة، لولا أن اللّه تعالى أنقذهم وثبّت قلوبهم مع الرسول ص ومع إخوانهم المؤمنين (23)، وفيهم قال تعالى: إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى الله صلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ [سورة آل عمران: الآية 122] ولما عسكر الجيش الإسلامي في منطقة الشيخين رأى رسول الله - ص- كتيبة لها صوت وجلبة فقال: ماهذه؟فقالوا: هؤلاء حلفاء عبدالله بن سلول بن أبي من يهود فقال - ف-: لا نستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك(24) وهذا أصل وضعه النبي - ص- في عدم الركون الى أعداء الاسلامفي الاستنصار بهم(25).

23) البخاري، الصحيح (حديث 4051)، مسلم، الصحيح ، 4/ 1948 (حديث 2505)، ابن هشام، السيرة، 3/ 154، الطبري، تفسير، 7/ 166، البيهقي، دلائل النبوة، 3/ 220- 22.
24) صحيح السيرة النبوية، ص278.
25) محمد عرجون ، محمد رسول الله ص ، 561/3

النبي ص يستعرض جيش المدينة :

ثم استعرض الرسول ص المتطوعين من صغار السن فرد منهم أربعة عشر صبيّا منهم عبدالله بن عمر، وزيد بن ثابت، وأسامة بن زيد، وزيد بن ارقم، والبراء بن عازب، وأبو سعيد الخدري، وأجاز منهم رافع بن خديج لما قيل له: إنه رام، فبلغ ذلك سمرة بن جندب، فذهب الى زوج أمه مرّي بن سنان بن ثعلبة يبكي وقال له: ياأبت أجاز رسول الله - ص- رافعاً وردني، وأنا أصرع رافعاً، فرجع زوج أمه ذلك إلى النبي -ص-، فالتفت النبي - ص- إلى رافع وسمرة فقال لهما تصارعا، فصرع سمرة رافعاً فأجازه كما أجاز رافعاً (26) ، ثم تقدم الجيش بعد ذلك إلى ميدان أحد حيث اتخذ مواقعه وفق الخطة المحكمة التي وضعها الرسول ص فقد نظّم فصفوف جيشه وصفّهم على هيئة صفوف الصلاة، وجعل رسول الله - ص- يمشي على رجليه يُسوي تلك الصفوف، ويبوئ أصحابه للقتال يقول: تقدم يافلان وتأخر يافلان، فهو يقوِّمهم.....، حتى استوت الصفوف) (27)، وبذلك وضع الحبيب محمد -ص- في مقدمة الصفوف الأشداء؛ لكي يفتحوا الطريق لمن خلفهم، وقد أخذ الرسول - ص- بهذا الاسلوب لأنه أبلغ في قتال الأعداء(28).

---

26) البخاري، فتح الباري، 5/ 276، مسلم الصحيح، 2/ 142.
27) الواقدي، المغازي ،219/1
28) محمد فرج، العبقرية العسكرية في غزوات الرسول، ص355، 356.

ثم إنه ص حمى ظهر المسلمين بالجبل وهم يستقبلون عدوهم (فجعل ظهره وعسكره الى أحد، وقال: (لا يقاتلن أحد حتى نأمره بالقتال) (29).

وجعل خمسين من الرماة بقيادة عبد اللّه بن جبير فوق تل عينين المقابل لجبل أحد بقصد منع المشركين من تطويق المسلمين، وأمر الرماة بالثبات في مواقعهم مهما حصل، وقال لهم: «إن رأيتمونا تخطّفنا الطّير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتّى أرسل لكم، وإن رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم فلا تبرحوا مكانكم» (30).

وقال رسول الله - ص- للجيش: لاتبرحوا حتى أوذنكم وقال: لا يقاتلن أحد حتى آمره بالقتال، وقال لأمير الرماة: انضح الخيل عنا بالنبل لايأتونا من خلفنا، واثبت مكانك إن كانت لنا أو علينا. وقال للرماة: الزموا مكانكم لا تبرحوا منه، فإذا رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل عسكرهم فلا تفارقوا مكانكم، وإن رأيتمونا نقتل فلا تغيثونا ولا تدفعوا عنا وارشقوهم بالنبل فإن الخيل لاتقدّم على النبل، إنا لن نزال غالبين مامكثتم مكانكم، اللهم إني أشهدك عليهم) (31).

---

29) البخاري، الصحيح (حديث 3039)، أحمد، المسند، 4/ 209، تاريخ الطبري ،507/2.

30) البخاري، الصحيح ، فتح الباري، 6/ 162 ،حديث 3039، أحمد ، المسند، 4/ 209، الحاكم ، المستدرك ، 2/ 296، الواقدي، المغازي ، 1/ 219- 220، ابن سعد، الطبقات ، 2/ 39- 40.

31) السيرة الحلبية ، 496/2.

وهكذا فقد سيطر المسلمون على المرتفعات تاركين الوادي لجيش المشركين(32). وحرض أصحابه على القتال، وحضهم على المصابرة والجلاد عند اللقاء، وأخذ ينفث روح الحماسة والبسالة في أصحابه حتى جرد سيفاً باتراً ونادي أصحابه : (من يأخذ مني هذا؟) فبسطوا أيديهم، كل إنسان منهم يقول: أنا أنا قال: (فمن يأخذه بحقه) قال: فأحجم القوم، فقال: سماك بن خرشة أبو دجانة وماحقه يارسول الله؟ قال: أن تضرب به العدو حتى ينحني، قال: أنا آخذه بحقه. فدفعه إليه وكان رجلاً شجاعاً يختال عند الحرب -اي يمشي مشية المتكبر- وحين رآه رسول الله - ص- يتبختر بين الصفين قال: (إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن)(33).

32) البخاري، الصحيح ، فتح 6/ 162 ، حديث 3039

33) مسلم، كتاب فضائل الصحابة رقم 2470.

قريش تشحذ هممها :

أما المشركون فعبأوا جيشهم حسب نظام الصفوف، فكانت القيادة العامة إلى أبي سفيان صخر بن حرب الذي تمركز في قلب الجيش، وجعلوا على الميمنة خالد بن الوليد ـ وكان إذ ذاك مشركاً ـ وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل، وعلى المشاة صفوان ابن أمية، وعلى رماة النبل عبد الله بن أبي ربيعة .

أما اللواء فكان إلى مفرزة من بني عبد الدار، وقد كان ذلك منصبهم منذ أن اقتسمت بنو عبد مناف المناصب التي ورثوها من قصي بن كلاب ـ كما أسلفنا في أوائل الكتاب ـ وكان لا يمكن لأحد أن ينازعهم في ذلك؛ تقيداً بالتقاليد التي ورثوها كابراً عن كابر، بيد أن القائد العام ـ أبا سفيان ـ ذكرهم بما أصاب قريشاً يوم بدر حين أسر حامل لوائهم النضر بن الحارث، وقال لهم ـ ليستفز غضبهم ويثير حميتهم : يا بني عبد الدار، قد وليتم لواءنا يوم بدر فأصابنا ما قد رأيتم، وإنما يؤتي الناس من قبل راياتهم، وإذا زالت زالوا، فإما أن تكفونا لواءنا، وإما أن تخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه.

ونجح أبو سفيان في هدفه، فقد غضب بنو عبد الدار لقول أبي سفيان أشد الغضب، وهموا به وتواعدوه وقالوا له : نحن نسلم إليك لواءنا ؟ ستعلم غداً إذا التقينا كيف نصنع . وقد ثبتوا عند احتدام المعركة حتى أبيدوا عن بكرة أبيهم .

وعقب ابن كثير علي ذلك الموقف بقوله : وذلك الذي أراد أبو سفيان(34).

---

34) البداية والنهاية ، 18/4

وقامت نسوة قريش بنصيبهن من بث الحماس في نفوس قريش ، تقودهن هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان، فكن يتجولن في الصفوف، ويضربن بالدفوف؛ يستنهضن الرجال، ويحرضن على القتال، ويثرن حفائظ الأبطال، ويحركن مشاعر أهل الطعان والضراب والنضال، فتارة يخاطبن أهل اللواء فيقلن :

وَيْها بني عبد الدار

ويها حُمَاة الأدبار

ضرباً بكل بتار

وتارة يأززن قومهن على القتال وينشدن :

إن تُقْبلُوا نُعَانِق ونَفْرِشُ النمارق

أو تُدْبِرُوا نُفَارِق فراق غير وَامِق (35)

35) ابن كثير ، البداية والنهاية ، 18/4

قبيل المعركة

وقبيل بدأ المعركة حاول أبو سفيان أن يحدث شرخاً وتصدعاً في جبهة المسلمين المتماسكة، فأرسل الى الأنصار يقول: (خلو بيننا وبين ابن عمنا، فننصرف عنكم، فلا حاجة بنا الى قتال) فردوا عليه بما يكره(36).

ولما فشلت المحاولة الاولى لجأت قريش الى محاولة اخرى عن طريق رجل من أهل المدينة، وهو أبو عامر الراهب - وكان يعد قريشا أن لو قد لقي قومه لم يختلف عليه منهم رجلان - حيث حاول أبو عامر الراهب (37) أن يصد بعض الانصار عن القتال ، فقال: يامعشر الأوس، أنا ابو عامر، قالوا: فلا أنعم الله بك عينا يافاسق فلما سمع ردهم عليه قال: لقد أصاب قومي بعدي شر، ثم قاتلهم قتالاً شديداً، ورماهم بالحجارة(38).

---

36) المقريزي ، إمتاع الأسماع ، 120/1.

37) كان قد تنصر في الجاهلية وقرأ علم أهل الكتاب، وكان فيه عبادة في الجاهلية، وله شرف في الخزرج كبير، فلما قدم رسول الله ـ ص- مهاجراً إلى المدينة واجتمع المسلمون عليه وصارت للإسلام كلمة عالية وأظهرهم الله يوم بدر بارز أبو عامر بالعداوة وظاهر بها وخرج فاراً إلى كفار مكة من مشركي قريش يمالئهم على حرب رسول الله ـ ص- فاجتمعوا بمن وافقهم في أحياء العرب فكان من أمر المسلمين ماكان وامتحنهم الله عزوجل، وكانت العاقبة للمتقين وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفين فوقع في إحداهن رسول الله ـ ص- وأصيب ذلك اليوم فجرح وكسرت رباعيته اليمنى والسفلى وشج رأسه صلوات الله وسلامه عليه. تفسيرابن كثير ، 388/2

38) أبو شهبة ،السيرة النبوية 192/2.

بداية المعركة :

وتقارب الجمعان وتدانت الفئتان، وآنت مرحلة القتال ، وكان أول وقود المعركة حامل لواء المشركين طلحة بن أبي طلحة العبدري، وكان من أشجع فرسان قريش، يسميه المسلمون كبش الكتيبة . خرج وهو راكب على جمل يدعو إلى المبارزة فأحجم عنه الناس لفرط شجاعته، يقول صاحب السيرة الحلبية: خرج طلحة بن عثمان وكان بيده لواء المشركين وطلب المبارزة مراراً فلم يخرج إليه أحدفقال: ياأصحاب محمد إنكم تزعمون أن الله تعالى يعجلنا بسيوفكم الى النار ويعجلكم بسيوفنا الى الجنة، فهل أحد منكم يعجلني بسيفه الى النار أو أعجله بسيفي الى الجنة؟ فخرج إليه علي بن أبي طالب - ا - فقال له علي - ا -: والذي نفسي بيده لا أفارقك حتى يعجلك الله بسيفي الى النار أو يعجلني بسيفك الى الجنة، فضربه علي فقطع رجله، فوقع على الأرض فانكشفت عورته، فقال: يابن عمي، أنشدك الله والرحم فرجع عنه ولم يجهزعليه، فكبر رسول الله ص، وقال لعلي بعض أصحابه أفلا أجهزت عليه؟ قال: إن ابن عمي ناشدني الرحم حين انكشفت عورته فاستحييت منه(39).

---

39) السيرة الحلبية ، 497/2، 498 ؛ تفسير الطبري ، 218/7

ثم اندلعت نيران المعركة، واشتد القتال بين الفريقين ، وبعد قتل طلحة بن أبي طلحة تعاقب بنو عبد الدار حمل اللواء ، فحمله أخوه أبو شيبة عثمان بن أبي طلحة، وتقدم للقتال وهو يقول :

إنَّ على أهْل اللوَاء حقاً أن تُخْضَبَ الصّعْدَة أو تَنْدَقَّا

فحمل عليه حمزة بن عبد المطلب فضربه على عاتقه ضربة بترت يده مع كتفه، حتى وصلت إلى سرته، فبانت رئته (40).

ثم رفع اللواء أبو سعد بن أبي طلحة، فقال سعد بن أبي وقاص : رميته فأصبت حنجرته ، فاندلع لسانه اندلاع لسان الكلب وقيل : بل خرج أبو سعد يدعو إلى البراز، فتقدم إليه على بن أبي طالب، فاختلفا ضربتين، فضربه على فقتله(41) . ثم رفع اللواء مُسَافع بن طلحة بن أبي طلحة، فرماه عاصم بن ثابت بن أبي الأفْلَح بسهم فقتله، فحمل اللواء بعده أخوه كِلاَب بن طلحة بن أبي طلحة، فانقض عليه الزبير بن العوام وقاتله حتى قتله، ثم حمل اللواء أخوهما الجُلاَس بن طلحة بن أبي طلحة، فطعنه طلحة بن عبيد الله طعنة قضت على حياته . وقيل : بل رماه عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح بسهم فقضي عليه .

40) ابن كثير ، البداية والنهاية ، 20/4

41) دلائل النبوة للبيهقي ، 255/3

هؤلاء ستة نفر من بيت واحد، بيت أبي طلحة عبد الله بن عثمان بن عبد الدار، قتلوا جميعاً حول لواء المشركين، ثم حمله من بني عبد الدار أرطاة بن شُرَحْبِيل، فقتله على بن أبي طالب، وقيل : حمزة بن عبد المطلب، ثم حمله شُرَيح بن قارظ فقتله قُزْمَان ـ وكان منافقاً قاتل مع المسلمين حمية، لا عن الإسلام ـ ثم حمله أبو زيد عمرو بن عبد مناف العبدري، فقتله قزمان أيضاً، ثم حمله ولد لشرحبيل بن هاشم العبدري فقتله قزمان أيضاً .

فهؤلاء عشرة من بني عبد الدار ـ من حمله اللواء ـ أبيدوا عن آخرهم، ولم يبق منهم أحد يحمل اللواء . فتقدم غلام لهم حبشي ـ اسمه صُؤَاب ـ فحمل اللواء، وأبدي من صنوف الشجاعة والثبات ما فاق به مواليه من حملة اللواء الذين قتلوا قبله فقد قاتل حتى قطعت يداه، فبرك على اللواء بصدره وعنقه؛ لئلا يسقط، حتى قتل وهو يقول : اللّهم هل أعزرت ؟ يعني هل أعذرت ؟ .وبعد أن قتل هذا الغلام ـ صُؤاب ـ سقط اللواء على الأرض، ولم يبق أحد يحمله، فبقي ساقطاً ، ولما قتل أصحاب اللواء انكشف المشركون منهزمين، لا يلوون على شئ، ونساؤهم يدعون بالويل، وتبعهم المسلمون يقتلونهم حيث شاؤوا، حتى أجهضوهم عن العسكر(42).

---

42) محمد بن يوسف الصالحي الشامي ، سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد ، 195/4- 196

وقاتل المسلمون عند لقاء العدو، تحت شعار: أمت، أمت، واستماتوا في قتال بطولي ملحمي سجل فيه صناديد الإسلام صورا رائعة في البطولة والبسالة (43) وسجل التاريخ روائع بطولات حمزة بن عبد المطلب، ومصعب ابن عمير وأبي دجانة، وأبي طلحة الأنصاري، وسعد بن أبي وقاص، وأمثالهم كثير (44)،فهذا الزبير بن العوام يصف لنا مافعله أبودجانة يوم أحد قال: وجدت في نفسي حين سألت رسول الله - ص- السيف فمنعنيه وأعطاه أبا دجانة وقلت أنا ابن صفية عمته ومن قريش وقد قمت إليه وسألته أياه قبله فأعطاه أبا دجانة وتركني والله لأنظرن مايصنع فاتبعته فأخرج عصابة له حمراء فعصب بها رأسه فقالت الانصار أخرج أبو دجانة عصابة الموت وهكذا كانت تقول له إذا تعصب فخرج وهو يقول:

43) مسلم ، الصحيح، 4/ 1917 (حديث 2470)، أحمد، المسند، 3/ 123، 4/ 46، الحاكم، المستدرك، 2/ 107- 108، 3/ 230، الدارمي، السنن 2/ 219.

44) البخاري، الصحيح (فتح الباري، 7/ 367)، مسلم، الصحيح، 2/ 284، أحمد، الفتح الرباني، 21/ 6059، الواقدي، المغازي، 1/ 301، خليفة بن خياط، التاريخ، ص/ 67.

أنا الذي عاهدني خليلي ونحن بالسفح لدى النخيل

أن لا أقوم الدهر في الكيول(45)؟ أضرب بسيف الله والرسول(46)

فجعل لا يلقي أحداً إلا قتله وكان في المشركين رجل لايدع جريحاً إلا ذفف(47) عليه فجعل كل منهما يدنو من صاحبه فدعوت الله أن يجمع بينهما فالتقيا فاختلفا ضربتين فضرب المشرك أبا دجانة فاتقاه بدرقته فعضت بسيفه وضربه أبودجانة فقتله، ثم رأيته قد حمل السيف على مفرق رأس هند بن عتبة ثم عدل السيف عنها فقلت الله ورسوله أعلم ، قال ابن اسحاق: قال ابو دجانة: رأيت انساناً يحمس الناس حماساً شديداً فصمدت له فلما حملت عليه السيف ولول فإذا امرأة فأكرمت سيف رسول الله أن أضرب به امرأة(48).

---

45) الكيول: مؤخرة الصفوف.
46) البداية والنهاية ، 17/4.
47) ذفف: اجهز عليه.
48) البداية والنهاية ، 18/4.

وقاتل أسد الله حمزة قتالاً ضارياً، وأثخن في المشركين قتلاً، وأطاح برؤس نفر من حملة لواء المشركين من بني عبدالدار، وبينما هو على هذه الحال من الشجاعة والإقدام كمن له وحشي حتى تمكن منه ثم رماه بحربته، فأصاب منه مقتلاً، يقول وحشي: إن حمزة قتل طعيمة بن عديّ بن الخيار ببدر،

قال لي مولاي جُبير بن مطعم: إن قتلت حمزة بعمي فأنت حر، فلما خرج الناس عام عينين وعينين جبل بجبال أحد، بينه وبينه واد- خرجت مع الناس إلى القتال، فلما أصطفوا للقتال خرج سباعُ فقال: هل من مبارز؟ قال فخرج إليه حمزة بن عبدالمطلب فقال: ياسباع، ياابن أم أنمار مقطعة البظور، أتحاد الله ورسوله ص؟ ثم شدّ عليه، فكان كأمس الذاهب قال: وكمنّتُ لحمزة تحت صخرة، فلما دنا مني رميته بحربتي فأضعها في ثُنَّيتِه(49) حتى خرجت من بين وَركيه، قال: فكان ذاك العهد به(50)، فلما رجع الناس رجعت معهم فأقمت بمكة .....(51) وكان من الأبطال المغامرين يومئذ حَنْظَلَة الغَسِيل ـ وهو حنظلة بن أبي عامر، وأبو عامر هذا هو الراهب الذي سمي بالفاسق، والذي مضي ذكره قريباً ـ كان حنظلة حديث عهد بالعُرْس، فلما سمع هواتف الحرب وهو على امرأته انخلع من أحضانها، وقام من فوره إلى الجهاد،

---

49) فاضعها في ثنيته: أي في عاتقه.
50) ذلك العهد به: كناية عن موته.
51) البخاري، المغازي رقم 4072.

فلما التقي بجيش المشركين في ساحة القتال أخذ يشق الصفوف حتى خلص إلى قائد المشركين أبي سفيان صخر بن حرب، وكاد يقضي عليه لولا أن أتاح الله له الشهادة، فقد شد على أبي سفيان فلما استعلاه وتمكن منه رآه شداد بن الأسود فضربه حتى قتله ، فذكر ذلك لرسول الله ص فقال:(إني رأيت الملائكة تغسِّله بين السماء والأرض بماء المزن، في صحاف الفضة) فقال رسول الله - ص-:(فأسالوا أهله ماشأنه؟) فسألوا صاحبته عنه فقالت: خرج وهو جُنُب حين سمع الهاتفة(52)، فقال رسول الله - ص- :(فلذلك غسلته الملائكة) (53).

وبعد أن اظهر المسلمون ضروباً من الشجاعة في قتال المشركين أحست قريش بالعجز والخور، وانكسرت همتها ـ حتى لم يجترئ أحد منها أن يدنو من لوائها الذي سقط بعد مقتل صُؤاب فيحمله ليدور حوله القتال ـ فأخذت في الانسحاب، ولجأت إلى الفرار، ونسيت ما كانت تتحدث به في نفوسها من أخذ الثأر والوتر والانتقام وإعادة العز والمجد والوقار .قال ابن إسحاق : ثم أنزل الله نصره على المسلمين، وصدقهم وعده، فحسوهم بالسيوف حتى كشفوهم عن المعسكر،

52) أي: سمع منادي رسول الله ص يدعو للخروج لملاقاة العدو.
53) صحيح السيرة النبوية ، ص289.

وكانت الهزيمة لاشك فيها .قال الزبير بن العوام، والبراء بن عازب: لقد رأيتنا ننظر إلى خدم هند بنت عتبة، وصواحبها مشمرات هوارب يرفعن عن سوقهن، حتى بدت خلاخلهن وانهزم القوم ما دون أخذهن قليل ولا كثير، وكانت الهزيمة لا شك فيها، ودخل المسلمون عسكر المشركين فانتهبوه(54).وحقق المسلمون الانتصار في الجولة الأولى من المعركة (55). وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز:

وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ [سورة آل عمران: الآية 152]

54) محمد بن يوسف الصالحي الشامي ، سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد ، 4/195- 196

55) البخاري، الصحيح، [فتح الباري، 6/ 162، 375 (حديث 3043)]، الطبري، تفسير، 7/ 281- 288، ابن كثير، التفسير، 2/ 114- 115 من رواية الإمام أحمد (انظر: المسند 1/ 287- 8)، الحاكم، المستدرك، 2/ 296.

خطأ الرماة وماحدث في صفوف المسلمين :

ولما رأى الرماة الهزيمة التي حلت بقريش وأحلافها تنادوا: «الغنيمة الغنيمة ظهر أصحابكم فما تنتظرون» فقال لهم أميرهم عبد اللّه بن جبير: «أنسيتم ما قال لكم رسول اللّه ص؟» قالوا:«واللّه لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة»، وهرعوا إلى جمع الغنائم تاركين مواضعهم الحصينة الخطيرة، عاصين أمر رسول اللّه ص باستثناء أميرهم عبد اللّه بن جبير. وكانت فرصة مواتية للمشركين فانتهز خالد بن الوليد هذه الفرصة الذهبية، فكرّ بسرعة خاطفة إلى جبل الرماة ليدور من خلفهاإلى مؤخرة الجيش الإسلامي، فلم يلبث أن أباد عبد الله بن جبير وأصحابه إلا البعض الذين لحقوا بالمسلمين، ثم انقض على المسلمين من خلفهم، وصاح فرسانه صيحة عرف بها المشركون المنهزمون بالتطور الجديد فانقلبوا على المسلمين وأسرعت امرأة منهم ـ وهي عمرة بنت علقمة الحارثية ـ فرفعت لواء المشركين المطروح على التراب، فالتف حوله المشركون ولاثوا به،

وتنادي بعضهم بعضاً، حتى اجتمعوا على المسلمين، وثبتوا للقتال، وأحيط المسلمون من الأمام والخلف، ووقعوا بين شِقَّي الرحي (56). وفقد المسلمون مواقعهم الأولى، وبدأو يقاتلون دون تخطيط ولم يعودوا يميّز بعضهم بعضا (57).

ويبدو أن بعض مقاتلة المشركين قد انتبهوا إلى وجود الرسول ص مع تسعة من أصحابه، سبعة منهم من الأنصار فهاجموهم، واستبسل الأنصار واستشهدوا واحدا بعد الآخر (58) ، عن أنس بن مالك ، أن رسول الله صأفرد يوم أحد في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش ، فلما رهقوه (59) قال : « من يردوهم عنا وله الجنةأو هو رفيقي في الجنة ؟ » فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل ، ثم رهقوه أيضا فقال : « من يردهم عنا وله الجنة ، أو هو رفيقي في الجنة ؟ »

56) ابن هشام ، السيرة ، 2/ 112، الطبري، التفسير ، 7/ 281- 282.

57) البخاري، الصحيح (فتح الباري- حديث 4065)، الحاكم، المستدرك، 3/ 202، أحمد، المسند، 4/ 209-211، ابن هشام، 3/ 127.

58) مسلم ، الصحيح ، 3/ 1415 (حديث 1789).

59) رهقوه أي غشوه وقربوا منه، قال القاضي عياض: قيل لا يستعمل ذلك إلّا في المكروه، وقيل: كل شيء دنوت منه فقد رهقته.

فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل ، فلم يزل كذلك حتى قتل السبعة ، فقال رسول الله ص لصاحبيه : « ما أنصفنا أصحابنا »(60)(61)، وكان آخر هؤلاء السبعة هو عمارة بن يزيد بن السّكَن، أو زياد بْن السكن، قاتل حتى أثبتته الجراحة فسقط (62). وبعد سقوط ابن السكن بقي الحبيب محمد ص في القرشيين فعن أبي عثمان قال : لم يبق مع النبي ص في بعض تلك الأيام التي يقاتل فيهن غير طلحة ابن عبيد الله وسعد بن أبي وقاص (63)، فقاتل عنه طلحة بن عبيد اللّه حتى أثخن وأصيب بسهم شلّت يمينه (64)، وقاتل سعد بن أبي وقاص بين يدي رسول اللّه ص وكان يناوله النبال ويقول له: «إرم يا سعد، فداك أبي وأمّي» (65). واستطاع المشركون أن يخلصوا قريباً من النبي ص، فرماه عتبة بن أبي وقاص بالحجارة فكسر أنفه الشريف ورباعيته (66) اليمنى السفلى، وشج في وجنته(67) وكُلِمَتْ (68)

---

60) المعنى على هذه الرواية: ما أنصفت قريش الأنصار، لكون القرشيّين لم يخرجا للقتال، بل خرجت الأنصار واحدا تلو الآخر وقد روي أيضا: ما أنصفنا أصحابنا والمراد بالأصحاب حينئذ الذين فروا من القتال فإنهم لم ينصفوه لفرارهم.

61) مسلم ، 1789.

62) ابن عبد البر ، الدرر في اختصار المغازي والسير، 158/1

63) روى الحديث البخاري في كتاب المغازي 18 باب ح 4060 وفي 62 كتاب فضائل الصحابة ح 3722.ومسلم في 44 كتاب فضائل الصحابة 6 باب ح 47.

64) البخاري، الصحيح [فتح الباري، 7/ 359 (حديث 3724)].

65) البخاري، الصحيح [فتح الباري، 7/ 358 (حديث 3724)].

66) الرباعية : السن بين الثنية والناب وهي أربع رباعيتان في الفك الأعلى ورباعيتان في الفك الأسفل

67) الوجنة : أعلى الخد

68) كلم : جرح وخدش

شفته السفلي، وتقدم إليه عبد الله بن شهاب الزهري فَشَجّه في جبهته، وجاء فارس عنيد هو عبد الله بن قَمِئَة، فضرب على عاتقه بالسيف ضربة عنيفة شكا لأجلها أكثر من شهر إلا أنه لم يتمكن من هتك الدرعين، ثم ضرب على وجنته فضربة أخري عنيفة كالأولي حتى دخلت حلقتان من حلق المِغْفَر في وجْنَتِه وقال : خذها وأنا ابن قمئة . فقال رسول الله صوهو يمسح الدم عن وجهة : (أقمأك الله) (69) .

وعن أنس ، أن رسول الله ص كسرت رباعيته ، وشج ، فجعل يسلت (70) الدم عن وجهه ويقول : « كيف يفلح قوم شجوا نبيهم ، وكسروا رباعيته ، وهو يدعوهم » قال : فأنزل الله عز وجل : لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ [سورة آل عمران: الآية 128] (71).

---

69) قال ابن هشام: عتبة بن أبى وقاص أخو سعد بن أبى وقاص الذي رمى رسول الله صيوم أحد فكسر رباعيته اليمنى السفلى وجرح شفته السفلى و عبد الله بن شهاب الزهري شجه في وجهه و ابن قميئة جرح وجنته فدخلت حلقتان من المغفر في وجنته، وقد اختلف في إسلام عتبة، والصحيح أنه لم يسلم، قال السهيلي ولم يولد من نسله ولد، فبلغ الحلم إلا وهو أبخر واهتم، يعرف ذلك في عقبه، وأما عبد الله بن شهاب فأسلم، وهو جد شيخ مالك محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب، وقد قيل لابن شهاب شيخ مالك: أكان جدك عبد الله بن شهاب ممن شهد بدرا ؟ فقال نعم، ولكن من ذلك الجانب يعنى مع الكفار، وأما ابن قميئة واسمه عبد الله فنطحه تيس فتردى من شاهق، وفى مستدرك الحاكم: أنه لما فعل عتبة ما فعل جاء حاطب بن أبى بلتعة فقال يا رسول الله من فعل هذا بك ؟ فأشار إلى عتبة، فتبعه حاطب حتى قتله وجاء بفرسه إلى رسول الله ص. القاضي أبو الفضل عياض ، الشفا بتعريف حقوق المصطفى ، تحقيق العلامة أحمد بن محمد بن محمد الشمنى ، طبعة دار الفكر الطباعة والنشر والتوزيع ، 1409 هـ - 1988 م ، 105/1

70) السلت : المسح والإزالة

71) رواه مسلم في 32 كتاب الجهاد 37 باب غزوة أحد.

وقعت هذه كلها بسرعة هائلة في لحظات خاطفة، وإلا فالمصطفون الأخيار من صحابته فـ الذين كانوا في مقدمة صفوف المسلمين عند القتال ـ لم يكادوا يرون تغير الموقف، أو يسمعوا صوته فحتى أسرعوا إليه ؛ لئلا يصل إليه شيء يكرهونه، إلا أنهم وصلوا وقد لقي رسول الله ص ما لقي من الجراحات ـ وستة من الأنصار قد قتلوا والسابع قد أثبتته الجراحات، وسعد وطلحة يكافحان أشد الكفاح ـ فلما وصلوا أقاموا حوله سياجاً من أجسادهم وسلاحهم، وبالغوا في وقايته من ضربات العدو، ورد هجماته . وكان أول من رجع إليه أبو بكر الصديق ا

روي عن عائشة قالت : قال أبو بكر الصديق : لما كان يوم أحد انصرف الناس كلهم عن النبي ص فكنت أول من فاء إلى النبي ص فرأيت بين يديه رجلاً يقاتل عنه ويحميه، قلت : كن طلحة، فداك أبي وأمي، كن طلحة، فداك أبي وأمي، حيث فاتني ما فاتني، فقلت : يكون رجل من قومي أحب إلي فلم أنشب أن أدركني أبو عبيدة بن الجراح، وإذا هو يشتد كأنه طير حتى لحقني، فدفعنا إلى النبي ص، فإذا طلحة بين يديه صريعاً، فقال النبي ص: (دونكم أخاكم فقد أوجب) ، وقد رمي النبي ص في وَجْنَتِهِ حتى غابت حلقتان من حلق المِغْفَر في وجنته، فذهبت لأنزعهما عن النبي ص فقال أبو عبيدة : نشدتك بالله يا أبا بكر، إلا تركتني قال :

فأخذ بفيه فجعل ينَضِّضه كراهية أن يؤذي رسول الله ص ثم استل السهم بفيه، فنَدَرَت ثنية أبي عبيدة، قال أبو بكر : ثم ذهبت لآخذ الآخر فقال أبو عبيدة : نشدتك بالله يا أبا بكر، إلا تركتني، قال : فأخذه فجعل ينضضه حتى اسْتَلَّه، فندرت ثنية أبي عبيدة الأخري، ثم قال رسول الله ص: (دونكمأخاكم، فقد أوجب) ، قال : فأقبلنا على طلحة نعالجه، وقد أصابته بضع عشرة ضربة (72). وفي تاريخ دمشق : فأتيناه في بعض تلك الحفار فإذا به بضع وستون أو أقل أو أكثر، بين طعنة ورمية وضربة، وإذا قد قطعت إصبعه، فأصلحنا من شأنه(73).وخلال هذه اللحظات الحرجة اجتمع حول النبي ص عصابة من أبطال المسلمين منهم أبو دُجَانة، ومصعب بن عمير، وعلى بن أبي طالب ، وسهل بن حنيف، ومالك بن سنان والد أبي سعيد الخدري، وأم عمارة نُسَيْبة بنت كعب المازنية، وقتادة ابن النعمان، وعمر بن الخطاب، وحاطب بن أبي بلتعة، وأبو طلحة كما كان عدد المشركين يتضاعف كل آن،

72) زاد المعاد في هَدْي خير العباد ، 184/3
73) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، 76/25

وبالطبع فقد اشتدت حملاتهم وزاد ضغطهم على المسلمين، حتى سقط رسول الله ص في حفرة من الحفر التي كان أبو عامر الفاسق يكيد بها، فجُحِشَتْ ركبته(74)، وأخذه على بيده، واحتضنه طلحة بن عبيد الله حتى استوي قائماً(75)،

وقال نافع بن جبير : سمعت رجلاً من المهاجرين يقول : شهدت أحداً فنظرت إلى النبل يأتي من كل ناحية، ورسول الله ص وسطها، كل ذلك يصرف عنه، ولقد رأيت عبد الله بن شهاب الزهري يقول يومئذ : دلوني على محمد، فلا نجوت إن نجا، ورسول الله صإلى جنبه، ما معه أحد، ثم جاوزه، فعاتبه في ذلك صفوان، فقال : والله ما رأيته، أحلف بالله إنه منا ممنوع، خرجنا أربعة، فتعاهدنا وتعاقدنا على قتله، فلم نخلص إلى ذلك (76).

---

74) مغازي الواقدي ، 90/1

75) زاد المعاد في هَدْي خير العباد ، 172/3 ، السيرة النبوية لابن كثير ، 130/1

76) زاد المعاد في هَدْي خير العباد ، 180/3

بطولات في وقت الشدة :

وقام المسلمون ببطولات نادرة وتضحيات رائعة، لم يعرف لها التاريخ نظيراً فقاتل أبو طلحة الأنصاري الذي كان من أمهر الرماة، وهو الذي قال عنه النبي ص: «لصوت أبي طلحة في الجيش أشدّ على المشركين من فئة» (77)وقد كان مترساً على رسول الله بحجفة، وكان رامياً شديد النزع(78)، كسر يومئذ قوسينأو ثلاثة، وكان الرجل يمر معه الجعبة(79) من النبل، فيقول رسولالله - ف-: (انثرها لأبي طلحة)، ثم يشرف الى القوم، فيقول أبو طلحة: يانبي الله بأبي أنت لاتشرف الى القوم(80)، ألايصيبك سهم، نحري دون نحرك(81)(82)ووقفت نسيبة بنت كعب تذب عن رسول الله - ص- بالسيف وترمي بالقوس وأصيبت بجراح كبيرة، وترس أبو دجانة دون رسول الله - ص- بنفسه يقع النبل في ظهره وهو منحني عليه حتى كثر فيه النبل(83).

---

77) البخاري، الصحيح، (فتح الباري 7/ 361)، أحمد، المسند ، (الفتح الرباني 22/ 589 بإسناد رجاله ثقات، الواقدي، المغازي، 1/ 243 باختلاف في نص الحديث.

78) صحيح السيرة النبوية، ص296.

79) الجعبة: الكنانة التي تجعل فيها السهام.

80) لا تشرف : لاتتطلع.

81) نحري دون نحرك: جعل الله نحري اقرب الى السهام من نحرك لأصاب بها دونك.

82) صحيح السيرة النبوية، ص296.

83) البداية والنهاية ، 35،36/4

وتبع حاطب بن أبي بلتعة عتبة بن أبي وقاص ـ الذي كسر الرّباعية الشريفة فضربه بالسيف حتى طرح رأسه، ثم أخذ فرسه وسيفه، وكان سعد بن أبي وقاص يقول والله ما حرصت على قتل رجل قط حرصي على قتل عتبة بن أبي وقاص وهو أخوه وإن كان ما علمت لسيئ الخلق مبغضا في قومه ولقد كفاني منه قول رسول الله ص اشتد غضب الله على من دمى وجه رسوله (84) وإن كان لم يظفر به، فقد ظفر به حاطب وقتله قال حاطب لما رأيت ما فعل عتبة برسول الله صقلت لرسول الله ص فأين توجه عتبة فأشار النبي ص إلى حيث توجه فمضيت حتى ظفرت به فضربته بالسيف فطرحت رأسه فنزلت وأخذت فرسه وسيفه وجئت به إلى رسول الله ص فقال لي رضي الله عنك رضي الله عنك مرتين (85) .وكان رسول الله ص فيباشر الرماية بنفسه، فعن قتادة بن النعمان : أن رسول الله رمي عن قوسه حتى اندقت سِيتُها(86) ، فأخذها قتادة بن النعمان فكانت عنده، وأصيبت يومئذ عينه حتى وقعت على وَجْنَتِه، فردها رسول الله ص بيده، فكانت أحسن عينيه وأحَدَّهُما(87) .

84) الكلاعي ، الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ص والثلاثة الخلفاء ، 64/2

85) علي بن برهان الدين الحلبي ، السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون ، 513/2 ، وقد اختلف في إسلام عتبة، وقد رجح البعض أنه لم يسلم، وقال السهيلي ولم يولد من نسله ولد، فبلغ الحلم إلا وهو أبخر واهتم، يعرف ذلك في عقبه . الروض الأنف ، 264/3

86) سية القوس ما عطف من طرفيها والجمع سيات.

87) دلائل النبوة للبيهقي ، 276/3

وقاتل عبد الرحمن بن عوف حتى أصيب فوه يومئذ فهُتِمَ، وجرح عشرين جراحة أو أكثر، أصابه بعضها في رجله فعرج (88).وامتص مالك بن سنان والد أبي سعيد الخدري الدم من وجنته فحتى أنقاه، فقال : (مُجّه) ، فقال : والله لا أمجه، ثم أدبر يقاتل، فقال النبي ص: (من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا) ، فقتل شهيداً(89).وقاتلت أم عمارة فاعترضت لابن قَمِئَة في أناس من المسلمين، فضربها ابن قمئة على عاتقها ضربة تركت جرحاً أجوف، وضربت هي ابن قمئة عدة ضربات بسيفها، لكن كانت عليه درعان فنجا، وبقيت أم عمارة تقاتل حتى أصابها اثنا عشر جرحاً .قالت أم سعد بنت سعد بن الربيع : دخلت على أم عمارة فقلت لها : يا خالة أخبريني خبرك ، فقالت خرجت أول النهار وأنا أنظر ما يصنع الناس ومعي سقاء فيه ماء فانتهيت إلى رسول الله ص وهو في أصحابه والدولة والريح للمسلمين فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله صفقمت أباشر القتال وأذب عنه بالسيف وأرمي عن القوس حتى خلصت الجراح إلي . قالت فرأيت على عاتقها جرحا أجوف له غور ،

88) الروض الأنف ، 267/3

89) دلائل النبوة للبيهقي ، 303/3

فقلت : من أصابك بهذا ؟ قالت ابن قمئة أقمأه الله لما ولي الناس عن رسول الله ص أقبل يقول دلوني على محمد ، فلا نجوت إن نجا فاعترضت له أنا ومصعب بن عمير ، وأناس ممن ثبت مع رسول الله صفضربني هذه الضربة ولكن فلقد ضربته على ذلك ضربات ولكن عدو الله كان عليه درعان (90) قال علي بن برهان الدين الحلبي : خرجت نسيبة يوم أحد وزوجها زيد ابن عاصم وابناهما خبيب وعبد الله رضي الله تعالى عنهم وقال لهم رسول الله ص رحمكم الله أهل البيت وفي رواية بارك الله صيكم أهل بيت . قالت له أم عمارة ك : ادع الله أن نرافقك في الجنة فقال اللهم اجعلهم رفقائي في الجنة " وعند ذلك قالت ك ما أبالي ما اصابني من أمر الدنيا (91).وكان مصعب بن عمير يحمل اللواء فلما جال المسلمون ثبت به فأقبل ابن قميئة وهو فارس فضرب يده اليمنى فقطعها، وهو يقول

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ [سورة آل عمران: الآية 144]

90) الروض الأنف ، 268/3

91) السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون ، 509/2

وأخذ اللواء بيده اليسرى وحنى عليه فقطع يده اليسرى، فحنى على اللواء وضمه بعضديه إلى صدره وهو يقول

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ [سورة آل عمران: الآية 144] ثم حمل عليه الثالثة فأنفذه واندق الرمح ووقع مصعب وسقط اللواء وابتدره رجلان من بني عبد الدار سويبط بن حرملة وأبو الروم، وأخذه أبو الروم فلم يزل في يده حتى دخل به المدينة حين انصرف المسلمون ، وكان ابن قمئة يظنه رسول الله ـ لشبهه به ـ فانصرف ابن قمئة إلى المشركين، وصاح : إن محمداً قد قتل (92).ولم ينفع بأس المسلمين وحرارة قتالهم ما داموا لا يقاتلون وفق خطة تستهدف أمرا واضحا، وتساقطوا في ميدان المعركة شهداء أبرارا، بعد أن انقطع اتصالهم بالرسول القائد ص، وشاع في ميدان المعركة أنه قد استشهد ، فخارت فيه عزائم كثير من الصحابة المطوقين، الذين لم يكونوا مع رسول الله ص،

92) ، ابن هشام ، السيرة النبوية ، 33/3 ، محمد بن يوسف الصالحي الشامي ، سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد ، 219/4

وانهارت معنوياتهم، حتى وقع داخل صفوفهم ارتباك شديد، وعمتها الفوضي والاضطراب، إلا أن هذه الصيحة خففت بعض التخفيف من مضاعفة هجمات المشركين ؛ لظنهم أنهم نجحوا في غاية مرامهم، فاشتغل الكثير منهم بتمثيل قتلي المسلمين (93).وفر جمع من المسلمين من ميدان المعركة، وجلس بعضهم إلى جانب ميدان المعركة دون قتال (94)، وآثر آخرون الشهادة بعد أن تصوروا أنهم قد فقدوا نبيّهم! ومن هؤلاء أنس بن النضر الذي كان يأسف لعدم شهوده بدرا والذي قال في ذلك: «واللّه لئن أراني اللّه مشهدا مع رسول اللّه صليرين اللّه كيف أصنع»، فلمّا كان يوم أحد وانكشف المسلمون، قال: «اللّهمّ إنّي أعتذر إليك ممّا صنع هؤلاء» يعني أصحابه «وأبرأ إليك ممّا صنع هؤلاء» يعني المشركين. ثمّ تقدّم فاستقبله سعد ابن معاذ فقال: «يا سعد بن معاذ، الجنّة وربّ النّضر، إنّي أجد ريحها من دون أحد». ثم وجد بعد ذلك وبه بضعا وثمانين ضربة بالسّيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم، وقد مثّـل به المشركون فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه. (95)، ونزل فيه وفي أمثاله قول اللّه تعالى:

---

93) البخاري، الصحيح (فتح الباري 7/ 361)، ابن هشام، السيرة، 3/ 112.
94) ابن هشام، السيرة ، 3/ 33، الطبري ، التفسير، 7/ 256.
95) ابن المبارك، كتاب الجهاد، ص 63، البخاري ، الصحيح ، (فتح الباري، 6/ 21، 7/ 274، 8/ 517).

مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا [سورة الأحزاب: الآية 23]

ومر رجل من المهاجرين يوم أحد على رجل من الانصار وهو يتشحط (96) في دمه فقال له يا فلان أشعرت أن محمدا قد قتل فقال الانصاري ان كان محمد (قد قتل فقد بلغ الرسالة فقاتلوا عن دينكم).فنزل قوله تعالى: وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ [سورة آل عمران: الآية 144]

ولعل هذا الانصاري هو أنس بن النضر ا وهو عم أنس بن مالك (97).

أما أولئك النفر الذين فرّوا لا يلوون على شيء رغم دعوة النبي ص لهم بالصمود والثبات فقد نزل فيهم قوله تعالى: ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ۗ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ [سورة آل عمران: الآية 153]

---

96) يتشحط : يتخبط ويتمرغ ويضطرب

97) ابن كثير ، البداية والنهاية ، 35/4 ، البيهقي ، دلائل النبوة ، 170/3

ولقد حكى القرآن الكريم خبر فرار هذه المجموعة من الصحابة الذين ترخصوافي الفرار بعد سماعهم نبأ مقتل النبي ص الذي شاع في ساحة المعركة، وكان أول من علم بنجاة الرسول ص وأنه حي هو الصحابي كعب بن مالك الذي رفع صوته بالبشرى فأمره النبي ص بالسكوت حتى لا يفطن المشركون إلى ذلك (98). وقد نص القرآن الكريم على أن اللّه تعالى قد عفا عن تلك الفئة التي فرت، قال تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ۖ وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ [سورة آل عمران: الآية 155] ولما نادي كعب بن مالك : يا معشر المسلمين أبشروا، هذا رسول الله ص وبالرغم من أن الحبيب محمد ف أشار إليه أن اصمت ـ وذلك لئلا يعرف موضعه المشركون ـ إلا أن هذا الصوت بلغ إلى آذان المسلمين، فلاذ إليه المسلمون وتجمع حوله الصحابة من جديد.واستجمع المسلمون قواهم من جديد ونظموا صفوفهم بقيادة الحبيب محمد ص، واستطاع عمر بن الخطاب أن يرد هجومًا مضادًا قاده خالد ضد المسلمين من عالية الجبل، واستبسل الصحابة الذين كانوا مع عمر في رد الهجوم العنيف

---

98) الحاكم ، المستدرك، 3/ 201، الهيثمي، مجمع الزوائد، 6/ 112.

وعاد المسلمون فسيطروا على الموقف من جديد، قال ابن إسحاق : بينا رسول الله ص في الشعب إذ علت عالية من قريش الجبل ـ يقودهم أبو سفيان وخالد بن الوليدـ فقال رسول الله ص: (اللّهم إنه لا ينبغي لهم أن يعلونا) فقاتل عمر بن الخطاب ورهط معه من المهاجرين حتى أهبطوهم وعلا المسلمون الجبل"(99).

كما روي أن المشركين لما صعدوا على الجبل ، فقال رسول الله ص لسعد : (اجْنُبْهُمْ) ـ يقول : اردده م ـ فقال : كيف أَجْنُبُهُمْ وحدي ؟ فقال ذلك ثلاثاً فأخذ سعد سهماً من كنانته، فرمي به رجلاً فقتله، قال : ثم أخذت سهمي أعرفه فرميت به آخر، فقتلته، ثم أخذته أعرفه فرميت به آخر فقتلته، فهبطوا من مكانهم، فقلت : هذا سهم مبارك، فجعلته في كنانتي . فكان عند سعد حتى مات ثم كان عند بنيه (100). وقد استمر القتال بين الطرفين حتى أجهدا، وانسحب النبي ص بمن معه ومن لحق به من أصحابه إلى أحد شعاب جبل أحد(101)

---

99) الطبري في التفسير 4 / 67.

100) زاد المعاد في هَدْي خير العباد ، 180/3

101) البخاري، الصحيح ، (فتح الباري، 7/ 358، مسلم، الصحيح، 2/ 321.

ولما أراد الحبيب محمد الله ص الصعود إلى الجبل عرضت له صخرةمن الجبل، فنهض إليها ليعلوها فلم يستطع ؛ لأنه كان قد بَدَّنَ وظاهر بين الدرعين(102) وقد أصابه جرح شديد . فجلس تحته طلحة بن عبيد الله، فنهض به حتى استوي عليها وقال : (أوْجَبَ(103) طلحةُ) (104) .وكان المسلمون في حالة من الألم والخوف والغم لما أصاب رسول اللّه صوما أصابهم رغم نجاحهم في رد المشركين. فأنزل اللّه عليهم النعاس فناموا يسيرا ثم أفاقوا آمنين مطمئنين (105)، قال تعالى: ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ [سورة آل عمران: الآية 154]

102) الدِرْع : الزَّرَدِيَّة وهي قميص من حلقات من الحديد متشابكة يُلْبَس وقايةً من السلاح
103) أوجب: أي وجبت له الجنة.
104) دلائل النبوة للبيهقي ، 255/3
105) البخاري، الصحيح ، (فتح الباري ، 7/ 365).

وقد أجمع المفسرون على أن الطائفة التي قد أهمتهم أنفسهم هم المنافقون وعلى رأسهم عبد اللّه بن أبي بن سلول وبعض من بقي منهم مع الجيش الإسلامي(106).

ولما أسند رسول الله صفي الشعب أدركه أبي بن خلف وحاول الوصول إليه ف، فقتله ف، وكان أبي بن خلف يلقى رسول الله بمكة، فيقول: يامحمد، إن عندي العَوْد، فرساً أعْلفه كل يوم، أقتلك عليه فقال رسول الله - ص-: بل أنا أقتلك إن شاء الله، فلما كان يوم أحد، وأسند رسول الله - ص- في الشِّعب أدركه أبي بن خلف وهو يقول: أي محمد لانجوتُ إن نجوت، فقال القوم: يارسول الله، أيعطف عليه رجل منا؟ فقال رسول الله ص : دعوه. فلما دنا تناول رسول الله - ص- الحربة من الحارث بن الصِّمة فلما أخذها رسول الله - ص- منه انتفض بها انتفاضة تطاير عنه من حوله تطاير الشَّعراء(107) عن ظهرالبعير إذا انتفض بها ثم استقبله فطعنه في عنقه طعنة تدأدأ(108) منها عن فرسه مراراً، فلما رجع إلى قريش وقد خدشه في عنقه خَدْشا غير كبير، فاحتقن الدم، قال: قتلني والله محمد قالوا له: ذهب والله صؤادك ! والله إن بك من بأس، قال: إنه قد كان قال لي بمكة: أنا أقتلك، فوالله لو بَصَق عليّ لقتلني فمات عدو الله بسرف(109) وهم قافلون به إلى مكة(110).

106) الطبري، التفسير، 7/ 323، ابن كثير، التفسير، 1/ 418.
107) الشَّعراء: ذباب له لدغ.
108) تدأدأ: تقلب عن فرسه فجعل يتدحرج.
109) سرف: موضع على ستة أميال من مكة.
110) السيرة النبوية لابن هشام ، 93،94/3

وفي رواية فأتاه أصحابه فاحتملوه وهو يخور خوار (111) الثور ، فقالوا : ما أجزعك (112) ؟ إنما هو خدش ، فذكر لهم قول رسول الله ص: « أنا أقتل أبيا » ، ثم قال : والذي نفسي بيده ، لو كان هذا الذي بي بأهل ذي المجاز لماتوا أجمعون فمات إلى النار ، فسحقا لأصحاب السعير(113).ولما يئست قريش من تحقيق نصر حاسم، وأجهد رجالها من طول المعركة ومن صمود المسلمين وجلدهم، وخاصة بعد أن اطمأنوا وأنزل اللّه عليهم الأمنة والصمود والتفوا حول النبي ص، ثم صد هجوم خالد بن الوليد وأبو سفيان ، وما كان من مقتل أبي بن خلف ، فقد كفّوا عن مطاردة المسلمين وعن محاولة اختراق قوتهم (114). ثم إن أبا سفيان بن حرب حين أراد الانصراف بالجيش أشرف على الجبل ثم صرخ بأعلى صوته فقال أفيكم محمد ؟ فلم يجيبوه . فقال : أفيكم ابن أبي قحافة؟ فلم يجبيبوه . فقال : أفيكم عمر بن الخطاب ؟ فلم يجيبوه ـ وكان النبي ص منعهم من الإجابة ـ ولم يسأل إلا عن هؤلاء الثلاثة لعلمه وعلم قومه أن قيام الإسلام بهم .

111) الخوار : الصياح
112) الجزع : الخوف والفزع وعدم الصبر والحزن
113) دلائل النبوة للبيهقي ، 290/3
114) البخاري، الصحيح ، (فتح الباري، 2/ 349)، أحمد، المسند، 4/ 211، 6/ 181.

فقال : أما هؤلاء فقد كفيتموهم، فلم يملك عمر نفسه أن قال : يا عدو الله، إن الذين ذكرتهم أحياء، وقد أبقي الله ما يسوءك . فقال : قد كان فيكم مثلة لم آمر بها ولم تسؤني .

ثم قال : أعْلِ هُبَل(115) .فقال النبي ص: (ألا تجيبونه ؟) فقالوا : فما نقول ؟ قال : (قولوا : الله أعلى وأجل) .ثم قال : لنا العُزَّى ولا عزى لكم .

فقال النبي ص: (ألا تجيبونه ؟) قالوا : ما نقول ؟ قال : (قولوا : الله مولانا، ولا مولي لكم) .ثم قال أبو سفيان : أنْعَمْتَ فَعَال ، يوم بيوم بدر، والحرب سِجَال .

فأجابه عمر، وقال : لاسواء(116)، قتلانا في الجنة، وقتلاكم في النار .

ثم قال أبو سفيان : هلم إلي يا عمر، فقال رسول الله ص: (ائته فانظر ما شأنه ؟) فجاءه، فقال له أبو سفيان : أنشدك الله يا عمر، أقتلنا محمداً ؟ قال عمر: اللّهم لا. وإنه ليستمع كلامك الآن. قال: أنت أصدق عندي من ابن قَمِئَة وأبر(117)

---

115) وسبب ذلك أنه حين أراد الخروج كتب على سهم " نعم " وعلى الآخر " لا " وأجالهما عند هبل فخرج بهم " نعم " فتوجه إلى أحد فقال اعل هبل أي زد علو

116) لا سواء: أي لا نحن سواء، وقد جاز دخول لا في هذا الموضع، لان القصد فيه نفي الفعل: أي لا نستوي.

117) لقول ابن قميئة له أني قتلت محمدا ، أنظر : سيرة ابن هشام ، 94/2 ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، 93/4، السيرة النبوية الصحيحة ، 392/2

لقد كان في سؤال أبي سفيان عن رسول الله - ص- وأبي بكر وعمر دلالة واضحة على اهتمام المشركين بهؤلاء دون غيرهم لأنه في علمهم أنهم أهل الإسلام وبه قام صرحه وأركان دولته وأعمدة نظامه، ففي موتهم يعتقد المشركون أنه لايقوم الإسلام بعدهم.

وكان السكوت عن إجابة أبي سفيان أولاً تصغيراً له حتى إذا انتشى وملأه الكبر أخبروه بحقيقة الأمر وردوا عليه بشجاعة.

وقد علق ابن القيم (118) علي هذا الموقف بقوله : فأمرهم بجوابه عند افتخاره بآلهته، وبشركه، تعظيماً للتوحيد، وإعلاماً بعزة من عبده المسلمون، وقوة جانبه، وأنه لا يغلب، ونحن حزبه وجنده ولم يأمرهم باجابته حين قال: أفيكم محمد؟ أفيكم ابن أبي قحافة؟ أفيكم عمر؟ بل روى انه نهاهم عن إجابته، وقال: لاتجيبوه، لأن كلمهم لم يكن برد في طلب القوم، ونار غيظهم بعد متوقدة، فلما قال لأصحابه: أما هؤلاء فقد كفيتموهم، حمي عمر بن الخطاب واشتد غضبه

118) زاد المعاد ، 202،203/3

وقال: كذبت ياعدو الله، فكان في هذا الاعلام من الاذلال، والشجاعة وعدم الجبن، والتعرف إلى العدو في تلك الحال مايؤذيهم بقوة القوم وبسالتهم، وأنهم لم يهنوا ولم يضعفوا، وأنه وقومه جديرون بعدم الخوف منهم، وقد أبقى الله لهم مايسؤوهم منهم، وكان في الإعلام ببقاء هؤلاء الثلاثة وهلة بعد ظنه وظن قومه أنهم قد أصيبوا من المصلحة، وغيظ العدو وحزبه والضتِّ في عضده ماليس في جوابه حين سأل عنهم واحداً واحداً، فكان سؤاله عنهم ونعيهم لقومه آخر سهام العدو وكيده، فصبر له النبي - ص- حتى استوفى كيده ثم انتدب له عمر، فرد بسهام كيده عليه، وكان ترك الجواب عليه أحسن، وذكره ثانياً أحسن، وأيضاً فإن في ترك إجابته حين سأله عنهم إهانة له، وتصغيراً لشأنه فلما منَّته نفسه موتهم، وظن أنهم قد قتلوا، وحصل له بذلك من الكبر والأشر ماحصل، كان في جوابه إهانة له، وتحقير، وإذلال، ولم يكن هذا مخالفاً لقول النبي - ص- :(لاتجيبوه) فانه إنما نهى عن اجابته حين سأل: أفيكم محمد؟ أفيكم فلان؟ ولم ينه عن إجابته حين قال: أما هؤلاء فقد قتلوا، وبكل حال فلا أحسن من ترك اجابته أولاً، ولا أحسن من إجابته ثانياً.

ولما انصرف أبو سفيان ومن معه نادى: إن موعدكم بدر العام المقبل، فقال رسول الله لرجل من أصحابه : قل: نعم هي بيننا وبينك موعداً، ثم بعث رسول الله ص علي بن أبي طالب فقال: أخرج في إثر القوم فانظر ماذا يصنعون، وماذا يريدون، فإن كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الابل فإنهم يريدون مكة، وان ركبوا الخيل وساقوا الابل فإنهم يريدون المدينة، والذي نفسي بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها، ثم لأناجزنهم، قال علي رحمة الله عليه: فخرجت في إثرهم أنظر ماذا يصنعون، فلما جنبوا الخيل، وامتطوا الابل، ووجهوا إلى مكة، أقبلت أصيح ما أستطيع أن أكتم ما أمرني به رسول الله ص لما بي من الفرح إذ رأيتم انصرفوا عن المدينة(119).

119) أنظر : سيرة ابن هشام ، 94/2 ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، 93/4

تفقد القتلى والجرحى

وفرغ الناس لقتلاهم بعد منصرف قريش وانتشروا يبتغونهم فلم يجدوا قتيلا إلا وقد مثلوا به إلا حنظلة بن أبي عامر. قال زيد بن ثابت : بعثني رسول الله ص يوم أحد أطلب سعد بن الربيع . فقال لي : (إن رأيته فأقرئه مني السلام، وقلله : يقول لك رسول الله ص: كيف تجدك ؟) قال : فجعلت أطوف بين القتلي فأتيته وهو بآخر رمق، فيه سبعون ضربة ؛ ما بين طعنة برمح، وضربة بسيف، ورمية بسهم، فقلت : يا سعد، إن رسول الله يقرأ عليك السلام، ويقول لك : أخبرني كيف تجدك ؟ فقال : وعلى رسول الله صالسلام، قل له، يا رسول الله، أجد ريح الجنة وقل لقومي الأنصار : لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى رسول الله ص وفيكم عين تطرف، وأسلم الروح مطمئنا، بعد أن بعث رسالته إلى النبي ص وإلى قومه الأنصار(120).ولم ينس المصطفى ص وأصحابه سعد ابن الربيع. ولا نسيه تاريخ الإسلام الذى استوعب رسالة هذا الجندي الشهيد، وعرف مغزاها ودلالتها، ورصد موقعها من نفوس المؤمنين: تزيدهم ثباتا وقوة واستبسالا وإصرارا(121).

120) أنظر : سيرة ابن هشام ، 94/2 ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، 93/4

121) الدكتورة عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطئ)، مع المصطفي ، ص261

فقد روى أن رجلا دخل على أبي بكر الصديق وبنت لسعد بن الربيع جارية صغيرة على صدره يرشفها ويقبلها فقال له الرجل من هذه ؟ قال هذه بنت رجل خير مني ، سعد بن الربيع ، كان من النقباء ليلة العقبة وشهد بدرا واستشهد يوم أحد(122).

وكان من بين جرحي المسلمين الأُصَيرِم ـ عمرو بن ثابت ـ ومن عجيب من أنهم كانوا من قبل يعرضون عليه الإسلام فيأباه، فوجدوه وهو يعاني سكرات الموت ، يقول عنه أبو هريرة ا: كان الأصيرم يأبى الإسلام على قومه، فجاء ذات يوم ورسول الله - ص- وأصحابه بأحد فقال: أين سعد بن معاذ؟ فقيل بأحد، فقال: أين بنو أخيه؟ قيل: بأحد، فسأل عن قومه فقيل: بأحد، فبدا له الإسلام فأسلم، وأخذ سيفه، ورمحه، وأخذ لأمته وركب فرسه فعدا حتى دخل في عُرْض الناس، فلما رآه المسلمون قالوا: إليك عنا ياعمرو، قال إني قد آمنت فقاتل حتى أثخنته الجراحة، فبينما رجال من بني عبدالأشهل يلتمسون قتلاهم في المعركة إذا هم به، فقالوا: والله إن هذا للأصيرم، ماجاء به؟ لقد تركناه وإنه منكر لهذا الحديث، فسألوه: ماجاء بك؟ أحَدَبٌ(123)

122) أنظر : سيرة ابن هشام ، 94/2

123) أي : تعطف عليهم.

على قومك أم رغبة في الإسلام؟ فقال: بل رغبة في الإسلام، آمنت بالله تعالى ورسوله - ف- وأسلمت ثم أخذت سيفي فغدوت مع رسول الله - ص-، ثم قاتلت حتى أصابني ما أصابني وإن مت فأموالي إلى محمد يضعها حيث شاء، فذكروه لرسول الله - ص- فقال: إنه من أهل الجنة.وقيل: مات فدخل الجنة وماصلى من صلاة، فقال النبي - ص- :(عملاً يسيراً وأجراً كثيراً) (124)، وكان أبو هريرة يقول: حدّثوني عن رجل دخل الجنة ولم يُصلّ قط فإذا لم يعرفه الناس سألوه من هو قال: هو أُصيرم بن عبدالأشهل(125).ووجدوا في الجرحي أيضا رجل يدعي قُزْمَان وكان ممن قاتل مع المسلمين يوم أحد ، وعرف بالشجاعة، وكان رسول الله ص يقول إذا ذكر له: إنه من أهل النار فتأخر يوم أحد فعيرته نساء بني ظفر، فأتى رسول الله ص وهو يسوي الصفوف حتى انتهى إلى الصف الأول، فكان أول من رمى من المسلمين بسهم، فجعل يرسل نبلاً كأنها الرماح ويكت كتيت الجمل، ثم فعل بالسيف الأفاعيل

124) البخاري ، الجهاد، رقم 2808.
125) السيرة النبوية لابن هشام ، 100،101/2

حتى قتل سبعة أو تسعة وأصابته جراحة، فوقع فناداه قتادة بن النعمان: يا أبا الغيداق، هنيئًا لك الشهادة، وجعل رجال من المسلمين يقولون له: والله لقد أبليت اليوم يا قزمان فأبشر، قال: بماذا؟ فوالله ما قاتلت إلا على أحساب قومي، فلولا ذلك ما قاتلت فذكر ذلك لرسول الله ص فقال: «إنه من أهل النار، إن الله تعالى يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»(126).وهذا هو مصير المقاتلين في سبيل الوطنية أو في أي سبيل سوي إعلاء كلمة الله، وإن قاتلوا تحت لواء الإسلام، بل وفي جيش الرسول ص والصحابة (127).

وإذا كان هناك من ناصر المسلمين – وهو علي غير دينهم – حمية لقومه فهناك من ناصرهم إيمانا برسالة الإسلام وقضية التوحيد مثل مخيريق ، وكان من شأنه أنه لما كانت غزوة أحد وخرج رسول الله - ص- يقاتل المشركين، جمع قومه اليهود وقال لهم: يامعشر يهود، والله لقد علمتم أن نصر محمد عليكم لحق، قالوا: ان اليوم يوم السبت، قال: لاسبت لكم ، فأخذ سيفه وعدته، وقال: إن أصبت فمالي لمحمد يصنع فيه ماشاء، ثم غدا إلى رسول الله - ص-، فقاتل معه حتى قتل، فقال رسول الله - ص- : مخيريق خير يهود(128).

---

126) السيرة النبوية لابن هشام ، 99/2

127) الرحيق المختوم ، ص 253

128) المغازي للواقدي ، 263/1، والسيرة لابن هشام ، 99/4

جمع الشهداء ودفنهم

ثم أمر الرسول ص بدفن شهداء المسلمين وكانوا سبعين شهيدا (129)،في حين بلغ عدد قتلى قريش اثنين وعشرين رجلا (130).و جمع الرسول ص بين الرجلين من الشهداء في ثوب واحد، وقدم عند الدفن أحفظهم لكتاب اللّه، وأمر أن يدفنوا في دمائهم فلم يغسلوا ولم يصلّ عليهم وقال: « أنا شهيد على هؤلاء، إنه مامن جريح يجرح في الله إلا والله بعثه يوم القيامة، يدمي جرحه اللون لون دم، والريح ريح المسك، »(131). ودفن الاثنان والثلاثة في قبر واحد، وأمر أن يدفنوا حيث صرعوا ، وكان أناس من الصحابة قد نقلوا قتلاهم إلى المدينة فأمر أن يردوهم، فيدفنوهم في مضاجعهم وألا يغسلوا، وأن يدفنوا كما هم بثيابهم بعد نزع الحديد والجلود (132).ودفن عبد الله بن عمرو بن حرام وعمرو بن الجموح في قبر واحد لما كان بينهما من المحبة . وفي قصة عبد الله بن عمرو بن حرام ، قالوا : فقال رسول الله ص يوم أحد : « ادفنوا عبد الله بن عمرو بن حرام ، وعمرو بن الجموح في قبر واحد» ، ويقال : إنما أمر بذلك لما كان بينهما من الصفاء ،

129) البخاري، الصحيح ، فتح الباري، حديث 4043، ابن هشام ، السيرة ، 4/ 100، الواقدي، المغازي، 1/ 200.

130) ابن هشام ، السيرة، 4/ 100، الواقدي ، المغازي، 1/ 307، أما عند ابن سعد، الطبقات 2/ 42، فإن عددهم ثلاثة وعشرون.

131) البخاري، الصحيح ، فتح الباري، 3/ 209، حديث 4079 ، أبو داود ، السنن، 2/ 174.

132) البخاري، الصحيح ، فتح الباري، 3/ 209، حديث 4079 ، أبو داود ، السنن، 2/ 174.

فقال : « ادفنوا هذين المتحابين في الدنيا في قبر واحد » ، ويقال : إنهما وجدا وقد مثل (133) بهما كل المثل فلم تعرف أبدانهما ، وكان عبد الله بن عمرو رجلا أحمر أصلع ليس بالطويل ، وكان عمرو بن الجموح رجلا طويلا ، فعرفا ، ودخل السيل (134) عليهما ، وكان قبرهما مما يلي السيل ، فحفر عنهما وعليهما نمرتان (135) ، وعبد الله قد أصابه جرح في يده فيده على جرحه ، فأميطت (136) يده عن جرحه ، فانثعب الدم فردت إلى مكانها فسكن الدم ، قال : جابر فرأيت أبي في حفرته فكأنه نائم ، فقيل له : أفرأيت أكفنته ؟ فقال : إنما دفن في نمرة خمر (137) بها وجهه ، وعلى رجليه الحرمل فوجدنا النمرة كما هي ، والحرمل على رجليه على هيئته ، وبين ذلك ست وأربعون سنة ، فشاورهم جابر في أن يطيب بمسك ، فأبى ذلك أصحاب النبي ص ويقال : إن معاوية لما أراد أن يجري الكظامة نادى مناديه بالمدينة : من كان له قتيل بأحد فليشهد ، فخرج الناس إلى قتلاهم فوجدوهم رطابا يتثنون ،

---

133) التمثيل : جدع الأطراف أو قطعها أو تشويه الجسد والتنكيل به
134) السيل : الماء الغزير المندفع بشدة
135) النمار : جلود النُّمور، وهي السِّباع المعروفة، واحِدُها : نَمِر. والنمار أيضا : كلُّ شَمْلَةٍ مُخَطَّطة من مَآزِر وسراويل الأعراب فهي نَمِرة، وجمعُها : نِمار.
136) أماط : نحى وأبعد
137) خَمَّرَ الشَّيْء : غَطَّاه وستره

فأصابت المسحاة رجل رجل منهم فانثعب دما ، فقال أبو سعيد الخدري : لا ينكر بعد هذا منكر ، ووجد عبد الله بن عمرو ، وعمرو بن الجموح في قبر واحد ، فحولا . وذلك أن القناة كانت تمر على قبرهما ، ووجد خارجة بن زيد بن أبي زهير وسعد بن الربيع في قبر واحد ، فتركا . ولقد كانوا يحفرون التراب ، فحفروا نثرة من تراب ، ففاح عليهم ريح المسك (138)وكان من بين الشهداء حنظلة غسيل الملائكة وكان من شأنه أنه لمّا انكشف المشركون ضرب حنظلة فرس أبي سفيان بن حرب فوقع على الأرض، فصاح وحنظلة يريد ذبحه، فأدركه الأسود بن شدّاد، ويقال له ابن شعوب، فحمل على حنظلة بالرمح فأنفذه ومشى إليه حنظلة بالرمح وقد أثبته، ثم ضرب الثانية فقتله فذكر ذلك لرسول الله - ص- فقال:(إني رأيت الملائكة تغسِّله بين السماء والأرض بماء المزن، في صحاف الفضة) فقال رسول الله - ص-:(فأسالوا أهله ماشأنه؟) فسألوا صاحبته عنه فقالت: خرج وهو جُنُب حين سمع الهاتفة(139) فقال رسول الله - ص- :(فلذلك غسلته الملائكة) (140).

138) دلائل النبوة للبيهقي ، 352/3

139) سمع منادي رسول الله ص يدعو للخروج لملاقاة العدو.

140) ابن هشام ، السيرة، 4/ 22.

وكان حنظلة بن أبي عامر تزوج جميلة بنت عبدالله بن أبي سلول، فأدخلت عليه في الليلة التي في صبحها قتال أحد. وكان قد استأذن رسول الله - ص- أن يبيت عندها فأذن له، فلّما صلَّى بالصبح غدا يريد رسول الله - ص- ولزمته جميلة فعاد فكان معها، فأجنب منها ثم أراد الخروج، وقد أرسلت قبل ذلكإلى أربعة من قومها فأشهدتهم أنه قد دخل بها، فقيل لها بَعْدُ: لم أشهدت عليه؟ قالت: رأيت كأن السماء فُرِجَتْ فدخل فيها حنظلة ثم أطبقت، فقلت: هذه الشهادة، فأشهدت عليه أنه قد دخل بها(141). ثم سأل الحبيب محمد – ص أصحابه: من رأى مقتل حمزة؟ فقالرجل: أنا رأيت مقتله، قال:(فانطلق أرناه) فخرج رسول الله - ص- حتى و قف على حمزة فرآه وقد شق بطنه، وقد مثل به، ، فاشتد حزنه ، قال ابن مسعود : ما رأينا رسول الله ص باكياً قط أشد من بكائه على حمزة بن عبد المطلب (142) وأقبلت صفية بنت عبد المطلب لتنظر إليه وكان أخاها لأبيها وأمها فقال رسول الله ص لابنها الزبير بن العوام القها فأرجعها لا ترى ما بأخيها ،

141) الواقدي ، المغازي ، 273/1

142) السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون ، 435/2

فقال لها يا أمه إن رسول الله ص يأمرك أن ترجعي ، قالت ولم وقد بلغني أن قد مثل بأخي وذلك في الله صما أرضانا بما كان من ذلك لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله ،

فلما أخبر الزبير بذلك رسول الله ص قال له خل سبيلها ، فأتته فنظرت إليه فصلت عليه ـ دعت له ـ واسترجعت (143) واستغفرت له ، ثم أمر به رسول الله ص فدفن مع عبد الله بن جحش في قبر واحد وهو ابن أخته أميمة بنت عبد المطلب وكان قد مثل به كما مثل بخاله حمزة إلا أنه لم يبقر عن كبده وجدع أنفه وأذناه فلذلك يقال له المجدع في الله(144) وكان في أول النهار قد لقي سعد بن أبي وقاص فقال له عبد الله هلم يا سعد فلندع الله وليذكر كل واحد منا حاجته في دعائه وليؤمن الآخر ، فقال سعد يا رب إذا لقيت العدو فلقني رجلا شديدا بأسه شديدا حرده أقاتله فيك ويقاتلني ثم ارزقني الظفر عليه حتى أقتله وأسلبه سلبه ، فأمن عبد الله بن جحش

---

143) استرجعت: قال: إنا لله وإنا إليه راجعون.

144) السيرة النبوية لابن هشام ، 108/4، الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله صوالثلاثة الخلفاء ، 72/2

ثم قال اللهم ارزقني رجلا شديدا بأسه شديدا حرده أقاتله فيك ، ويقاتلني فيقتلني ثم يجدع أنفي وأذني فإذا لقيتك غدا قلت لي يا عبد الله صيم جدع أنفك وأذناك فأقول فيك يا رب وفي رسولك ، فتقول لي صدقت ، فأمن سعد على دعوته ، قال سعد كانت دعوة عبد الله خيرا من دعوتي لقد رأيته آخر النهار وإن أذنيه وأنفه معلقتان في خيط ولقيت أنا فلانا من المشركين فقتلته وأخذت سلبه (145)

والحقيقة أن منظر الشهداء كان مريعاً جداً يفتت الأكباد ، قال خباب ا: هاجرنا مع رسول الله - ص- ونحن نبتغي وجه الله، فوقع أجرنا على الله صمنا من مضى في سبيله ولم يأكل من أجره شيئاً، منهم مصعب بن عمير قتل يوم أحد، ولم يترك إلا نمرة، كنا إذا غطينا رأسه بدت رجلاه، وإذا غطينا رجليه بدا رأسه، فقال رسول الله - ص- :(غطوا رأسه،واجعلوا على رجليه الأذخر) (146) ومنا من أينعت له ثمرته فهو يهديها(147)، ومن حديث عبدالرحمن بن عوف أنه أتي بطعام وكان صائماً، فقال: قتل مصعب بن عمير، وهو خير مني، كفن في بردة، إن غطي رأسه، وأراه قال: وقتل حمزة وهو خير مني، ثم بسط لنا من الدنياأو قال: أعطينا من الدنيا ماأعطينا -

145) السيرة النبوية لابن هشام ، 108/4، الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ص والثلاثة الخلفاء ، 72/2

146) الأذخر: نوع من العشب.

147) البخاري في الجنائز رقم 1286.

وقد خشينا أن تكون حسناتنا عجلت لنا، ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام(148)، ومن حديث أبي هريرة ا قال: إن رسول اللهف حين انصرف من أحد مر على مصعب بن عمير وهو مقتول على طريقه فوقف عليه، ودعا له، ثم قرأ هذه الآية:

مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا [سورة الأحزاب: الآية 23]. ثم قال رسول الله - ص-:(أشهد أن هؤلاء شهداء عند الله يوم القيامة، فأتوهم وزوروهم، والذي نفسي بيده لايسلم عليهم أحد إلى يوم القيامة إلا ردوا عليه) (149) .ثم جمع النبي ص أصحابه بعد دفن الشهداء وجعلهم صفًا وأثنى على ربه ودعاه أن يمنحهم نعيم الدنيا وحسن ثواب الآخرة وأن يقتل الكفرة المكذبين ، فقد روي الإمام أحمد : لما كان يوم أحد وانكفأ المشركون، قال رسول الله ص: (استووا حتى أثني على ربي عز وجل) ،

148) البخاري في الجنائز رقم 1275،1274.
149) المستدرك ، 200/3 ، صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

فصاروا خلفه صفوفاً، فقال :(اللهم لك الحمد كله، اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لمن أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرب لما باعدت، ولا مبعد لما قربت . اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك)

(اللهم إني أسألك النعيم المقيم، الذي لا يحُول ولا يزول . اللهم إني أسألك العون يوم العيلة، والأمن يوم الخوف . اللهم إني عائذ بك من شر ما أعطيتنا وشر ما منعتنا . اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين . اللهم توفنا مسلمين، وأحينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مفتونين . اللّهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك ويصدون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك وعذابك . اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب، إله الحق)(150).

150) أحمد ، المسند ، 3/ 424، الحاكم ، المستدرك ، 3/ 23.

قتلى الفريقين

اتفقت جل الروايات على أن قتلي المسلمين كانوا سبعين، وكانت الأغلبية الساحقة من الأنصار؛ فقد قتل منهم خمسة وستون رجلاً، واحد وأربعون من الخزرج، وأربعة وعشرون من الأوس، وقتل رجل من اليهود . وأما شهداء المهاجرين فكانوا أربعة فقط .

وأما قتلي المشركين فقد ذكر ابن إسحاق أنهم اثنان وعشرون قتيلاً، ولكن الإحصاء الدقيق ـ بعد تعميق النظر في جميع تفاصيل المعركة التي ذكرها أهل المغازي والسير، والتي تتضمن ذكر قتلي المشركين في مختلف مراحل القتال ـ يفيد أن عدد قتلي المشركين سبعة وثلاثون، لا اثنان وعشرون، والله أعلم (151).

151) الصالحي ، سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد ، 229/4 ، مغازي الواقدي ، 314/1-316

العودة إلى المدينة:

ولما فرغ رسول الله ص من دفن الشهداء والثناء على الله والتضرع إليه، انصرف راجعاً إلى المدينة، فلقيته حمنة بنت جحش كما ذكر لي فلما لقيت الناس نعى إليها أخوها عبد الله بن جحش فاسترجعت واستغفرت له ثم نعي لها خالها حمزة بن عبد المطلب فاسترجعت واستغفرت له ثم نعي لها زوجها مصعب بن عمير فصاحت وولولت فقال رسول الله ص" إن زوج المرأة منها لبمكان " لما رأى من تثبتها عند أخيها وخالها وصياحها على زوجها (152).

ومر رسول الله ص في انصرافه بامرأة من بني دينار وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول الله ص بأحد ، فلما نعوا لها قالت: فما فعل رسول الله - ص-؟ خيراً يا أم فلان، هو بحمد الله كما تحبين، قالت: أرونيه حتى أنظر إليه فأشير لها اليه، حتى إذا رأته قالت: كل مصيبة بعدك جلل(153)،

152) سيرة ابن هشام ج 3 / 104 ، البداية والنهاية ، 53/4

153) الجلل يكون من القليل والكثير وهو ههنا القليل.

تريد صغيرة(154).وخرجت أم سعد بن معاذ تعدو نحو رسول الله - ص-، ورسول الله - ص- واقف على فرسه، وسعد بن معاذ آخذ بعنان فرسه، فقال سعد: يارسول الله، أمِّي فقال رسول الله مرحباً بها، فدنت حتى تأمّلت رسول الله صقالت: أما إذا رأيتك سالماً، فقد أشوَت(155)المصيبة، فعزّاها رسول الله - ص- بعمرو بن معاذ ابنها، ثم قال: يا أم سعد، أبشري وبشرَي أهليهم أنَّ قتلاهم قد ترافقوا في الجنة جميعاً- وهم اثنا عشر رجلاً- وقد شُفّعوا في أهليهم. قالت: رضينا يارسول الله، ومن يبكي عليهم بعد هذا؟ ثم قالت: ادع يارسول الله لمن خُلِّفوا. فقال رسول الله - ص-: اللهم أذهب حُزن قلوبهم واجْبُر مصيبتهم وأحسن الخَلَف على من خُلّفوا(156) ، ثم قال: " خل يا أبا عمرو - يعني سعد بن معاذ - الدابة "، فخلى سعد الفرس، فتبعه الناس، فقال: " أبا عمرو إن الجراح في أهل دارك فاشية، وليس منهم مجروح إلا يأتي يوم القيامة جرحه كأغزر ما كان، اللون لون الدم، والريح ريح المسك، فمن كان مجروحا فليقر في داره وليداو جرحه، ولا يبلغ معي بيتي، عزيمة مني "

فنادى فيهم سعد: عزيمة من رسول الله صألا يتبع رسول الله صجريح من بني عبد الاشهل، فتخلف كل مجروح، فباتوا يوقدون النيران، ويداوون الجرحى ومضى سعد مع رسول الله ص

154) سيرة ابن هشام ج 3 / 104 ، البداية والنهاية ، 53/4

155) أشوَت: صارت صغيرة خفيفة.

156) مغازي الواقدي ، 315/1-316

حتى جاء بيته، فما نزل نبي الله ص، عن فرسه إلا حملا، واتكأ على سعد بن عبادة وسعد بن معاذ، حتى دخل بيته، فلما انتهى رسول الله صإلى أهله ناول سيفه ابنته فاطمة، فقال: " اغسلي عن هذا دمه فوالله لقد صدقني اليوم "، وناولها علي بن أبي طالب سيفه، فقال: " وهذا، فاغسلي عنه دمه، فوالله لقد صدقني اليوم "، فقال رسول الله ص : " لئن كنت صدقت القتال لقد صدقه معك سهل بن حنيف وأبو دجانة ".وكانت عودة الحبيب محمد ص بالجيش إلي المدينة مساء يوم السبت السابع من شهر شوال سنة 3هـ ـ إلى المدينة (157).

وبات المسلمون في المدينة ـ ليلة الأحد الثامن من شهر شوال سنة 3 هـ بعد الرجوع من معركة أحد ـ وهم في حالة الطوارئ، باتوا ـ وقد أنهكهم التعب، ونال منهم أي منال ـ يحرسون أنقاب المدينة ومداخلها، ويحرسون قائدهم الأعلى رسول الله ص خاصة ؛ إذ كانت تتلاحقهم الشبهات من كل جانب (158).

157) الصالحي ، سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد ، 75/4 ، الرحيق المختوم ، ص 258

158) مغازي الواقدي ، 335/1-336، الرحيق المختوم ، ص 258

القرآن يتحدث عن الغزوة :

ولقد نزلت في موضوع غزوة أحد ومعركتها ثمان وخمسون آية من سورة آل عمران تبدأ بذكر المراحل الأولى للمعركة في قوله تعالى:

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ [سورة آل عمران: الآية 121] ونزلت آيات القرآن تمسح جراحات المسلمين وآلامهم وتعطيهم جرعات كبيرة من التربية الإيمانية، وهي تسجل مشاهد متعددة من هذه الغزوة والدرس، منها قوله تعالى: وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ [سورة آل عمران: الآية 139]ومنها: إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (140) [سورة آل عمران: الآية 140]ومنها قوله تعالى: أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ [سورة آل عمران: الآية 142]وقوله: إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ [سورة آل عمران: الآية 140] وقوله: وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ [سورة آل عمران: الآية 143]

وقوله تعالى: وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (144) [سورة آل عمران: الآية 144]وقوله: وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (145) [سورة آل عمران: الآية 145] وقوله تعالى: وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا [سورة النساء: الآية 104]وتقدم في النهاية تعليقا جامعا على نتائج المعركة والحكمة التي أرادها اللّه من جرّائها، في قوله تعالى:

مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ [سورة آل عمران: الآية 179]

غزوة حمراء الأسد

وواجه المسلمون عند عودتهم إلى المدينة اليهود الشامتين، والمنافقين المرجفين، وكانوا يواجهون في أطرافها الأعراب المشركين الذين تطلعوا بشراهة إلى ثمار المدينة وخيراتها ، كما كان هناك احتمال أن المشركين قد يفكروا في أنهم لم يستفيدوا شيئاً من النصر والغلبة التي كسبوها في ساحة القتال، فلا بد من أن يندموا على ذلك، ويرجعوا من الطريق لغزو المدينة مرة ثانية، وهو ما حدث بالفعل إذ كان النبي - ص- يتابع أخبار المشركين بواسطة بعض اتباعه حتى بعد رجوعهم إلى مكة وبلغه مقالة أبي سفيان يلوم فيها جنده لكونهم لم يشفوا غليلهم من محمد وجنده، فعن ابن عباس اما قال: لما انصرف أبو سفيان والمشركون من أحد وبلغوا الرّوحاء(159)، قال أبو سفيان: لامحمداً قتلتم ولا الكواعب أردفتم شر ماصنعتم، فبلغ ذلك رسول الله - ص-(160).
وقال الواقدي باتت وجوه الأنصار على بابه ف فلما طلع الفجر وأذن بلال بالصلاة جاء عبد الله بن عمرو المزني فأخبر النبي ص أنه أقبل من عند أهله بملل(161)

---

159) الروّحاء: تبعد عن المدينة 73 كيلومتراً في طريق مكة.
160) مجمع الزوائد للهيثمي (121/6) قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح غير محمد بن منصور الجوّاز.
161) اسم موضع قرب المدينة

إذا قريش قد نزلوا فسمعهم يقولون ما صنعتم شيئا . أصبتم شوكة القوم وحدهم ثم تركتموهم ولم تبيدوهم . قد بقي منهم رؤوس يجمعون لكم فارجعوا نستأصل من بقي وصفوان بن أمية يأبى ذلك عليهم ويقول لا تفعلوا فإن القوم قد غضبوا وأخاف أن يجتمع عليكم من تخلف من الخزرج . فارجعوا والدولة لكم فأني لا آمن ان رجعتم أن تكون الدولة عليكم . فقال ص وأرشدهم صفوان وما كان برشيد . والذي نفسي بيده لقد سومت لهم الحجارة ولو رجعوا لكانوا كالأمس الذاهب (162).

فلما صلى رسول الله ص الصبح ندب الناس وأذن مؤذن رسول الله ص بالخروج أي أمر بلالا أن ينادي أن رسول الله ص يأمركم بطلب العدو وأن لا يخرج معنا أحد إلا من خرج معنا أمس يعني من شهد أحدا (163).قال ابن اسحاق: كان أحد يوم السبت للنصف من شوال فلما كان الغد يوم الأحد سادس عشر من شوال: أذّن مؤذن رسول الله - ص- في الناس بطلب العدو وأن لايخرج معنا إلا من حضر بالأمس، فاستأذنه جابر بن عبدالله صي الخروج معه فأذن له، وإنما خرج مرهباً للعدو، وليظنوا أن الذي أصابهم لم يوهنهم عن طلب عدوهم(164)،

---

162) مغازي الواقدي ، 335/1-336

163) البخاري، الصحيح ، الحديث 4077، مسلم، الصحيح ، حديث 2418.

164) البداية والنهاية ، 50/4

وقد استجاب أصحاب النبي - ص- لنداء الجهاد حتى الذين أصيبوا بالجروح، فهذا رجل من بني عبدالأشهل يقول: شهدت أحداً أنا وأخ لي فرجعنا جريحين، فلما أذن مؤذن رسول الله - ص- بالخروج في طلب العدو قلت لأخي وقال لي: أتفوتنا غزوة مع رسول الله - ص-؟ والله مالنا من دابة نركبها ومامنا إلا جريح ثقيل، فخرجنا مع رسول الله - ص-، وكنت أيسر جرحاً منه، فكان اذا غلب حملته عقبة ومشى عقبة (نوبة) حتى انتهينا إلى ماانتهى إليه المسلمون(165) وسار رسول الله - ص- إلى حمراء الأسد واقترب بجنوده من جيش المشركين، فأقام فيه ثلاثة أيام يتحدى المشركين، فلم يتشجعوا على لقائه ونزاله وكان رسول الله - ص- قد أمر بإشعال النيران فكانوا يشعلون في وقت واحد خمسمائة نار(166). وأقبل معبد بن أبي معبد الخزاعي إلى رسول الله - ص- فأسلم، فأمره أن يلحق بأبي سفيان، فيخذّله، فلحقه بالروحاء ولم يعلم بإسلامه،

165) البداية والنهاية ، 50/4

166) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، 43/2

فقال ماوراءك يامعبد؟ فقال: محمد وأصحابه، فقد تحرقوا عليكم، وخرجوا في جمع لم يخرجوا في مثله، وقد ندم من كان تخلف عنهم من أصحابهم، فقال: ماتقول؟ فقال: ماأرى أن ترتحل حتى يطلع أول الجيش من وراء هذه الأكمة(167)، فقال أبو سفيان والله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصلهم، قال معبد: فإني أنهاك عن ذلك، ووالله لقد حملني مارأيت على أن قلت فيه أبياتاً من شعر:

قال وماقلت؟ قال قلت:

كادت تُهدَّ من الأصوات راحلتي إذ سالت الأرض بالجرد(168) الأبابيل

تُرْدِي(169) بأسد كرام لاتنابلة(170) عند اللقاء ولاميل(171) معازيل(172)

فظلت عدْواً أظن الأرض مائلة لمّا سمو برئيس غير مخذول

ج

167) زاد المعاد ، 245/3

168) الجرد: جمع أجرد وهو الضرسي قصير الشعر، والأبابيل: الفرق الكثيرة.

169) تردى: تسرع.

170) تنابلة: جمع تنبال وهو القصير.

171) الميل: جمع أميل، وهو الجبان.

172) معازيل: جمع معزال وهو من لا رُمح معه.

فقلتُ:

ويلَ ابنِ حربٍ من لقائكم إذا تغطمطتِ البطحاء بالجيل(173)

إني نذيرٌ لأهل البَسْل ضاحية لكل ذي أُربَةٍ منهم ومعقول

من جيشِ أحمدَ لا وخشٍ(174) وليس يوصف ماأنذرت بالقيل(175)

قنابله

---

173) تغطمطت: اضطربت وثارت.

174) وخش: رديء.

175) البداية والنهاية ، 51/4

فثنى ذلك أبو سفيان ومن معه، وحاول أبو سفيان أن يغطي انسحابه هذا بشن حرب نفسية على المسلمين، لعله يرهبهم فأرسل مع ركب عبدالقيس وكانوا يريدون المدينة للميرة رسالة إلى رسول الله - ص- مفادها أن أبا سفيان وجيشه قد أجمعوا على السير إليه وإلى أصحابه ليستأصلهم من الوجود وواعد أبو سفيان الركب أن يعطيهم زبيباً عندما يأتوه في سوق عكاظ، ومر الركب برسول الله - ص- وهو بحمراء الأسد فأخبروه بالذي قال أبو سفيان، فقال هو والمسلمون

الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ [سورة آل عمران: الآية 173]

وأنزل اللّه تعالى في ذلك قوله:

الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (174) إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (175)

[سورة آل عمران: الآية 173-175]

أقام النبي ص في حمراء الأسد ثلاثة أيام واستمر المسلمون في معسكرهم وآثرت قريش السلامة والأوبة، فرجعوا إلى مكة، وبعد ذلك عاد المسلمون إلى المدينة بروح قوية متوثبة، غسلت عار الهزيمة، ومسحت مغبة الفشل، فدخلوها أعزة رفيعي الجانب، عبثوا بانتصار المشركين، وهزوا أعصابهم، وأحبطوا شماتة المنافقين واليهود في المدينة (176)ووقع في أسر النبي - ص- قبل رجوعه إلى المدينة أبو عزة الجمحي الشاعر الذي كان النبي ص قد منّ عليه فأطلقه من أسره ببدر دون فداء واشترط عليه بألّا يحارب المسلمين، وقد حاول الاعتذار ، وقال يارسول الله أقلني، فقال رسول الله ص: (لاوالله، لاتمسح عارضك(177) بمكة بعدها وتقول خدعت محمداً مرتين اضرب عنقه يازبير) (178)، فضرب عنقه، فقال النبي - ص- حينئذ: (لايلدغ المؤمن من جحر مرتين) (179).

176) ابن هشام ، السيرة 3/ 101.
177) عارضيك: هما جانبا الوجه. لسان العرب ، 742/2
178) السيرة النبوية لابن هشام ، 116/3
179) البخاري ، كتاب الأدب، باب لايلدغ المرء ، 134/7 ، رقم 6133.

فصار هذا الحديث مثلاً ولم يسمع قبل ذلك.ويعد هذا العمل من قبيل السياسة الشرعية، لأن هذا الشاعر من المفسدين في الأرض، الداعين إلى الفتنة، ولأن في المنّ عليه تمكيناً له من أن يعود حرباً على المسلمين. ولم يؤسر من المشركين سوى أبي عزة الجمحي(180).

و لقد حققت غزوة حمراء الأسد أهدافها المرجّوة فقد أظهرت قدرة المسلمين- وهم في أحلك الظروف- على التصدي لخصومهم. كما أنها بيّنت أنهم إذا كانوا قادرين على متابعة التحرك العسكري خارج المدينة بقسم من قواتهم فإنهم لا شك أقدر على مواجهة أعدائهم داخل المدينة من اليهود والمنافقين وبقايا المشركين.

180) البخاري، الصحيح ، فتح الباري، حديث 6133، ابن هشام- السيرة 3/ 116 بلاغا عن ابن المسيّب ، البداية والنهاية ، 53/4

الفوائد والدروس والعبر من غزوة أحد

عدد ابن القيم الدروس والعبر من غزوة أحد ومنها :

1- تعريفهم سوء عاقبة المعصية

فمنها: تعريفهم سوء عاقبة المعصية والفشل والتنازع وأن الذي أصابهم إنما هو بشؤم ذلك كما قال تعالى : وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ [سورة آل عمران: الآية 152]فلما ذاقوا عاقبة معصيتهم للرسول وتنازعهم وفشلهم كانوا بعد ذلك أشد حذرا ويقظة وتحرزا من أسباب الخذلان .

2- وتلك الأيام نداولها بين الناس

ومنها : أن حكمة الله وسنته في رسله وأتباعهم جرت بأن يدالوا مرة ويدال عليهم أخرى لكن تكون لهم العاقبة فإنهم لو انتصروا دائما دخل معهم المؤمنون وغيرهم ولم يتميز الصادق من غيره ولو انتصر عليهم دائما لم جمع لهم بين الأمرين ليتميز من يتبعهم ويطيعهم للحق وما جاءوا به ممن يتبعهم على الظهور والغلبة خاصة .

3 - الرسل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة

ومنها : أن هذا من أعلام الرسل كما قال هرقل لأبي سفيان هل قاتلتموه ؟ قال نعم قال كيف الحرب بينكم وبينه ؟ قال سجال يدال علينا المرة وندال عليه الأخرى قال كذلك الرسل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة .

4 - تميز المؤمن الصادق من المنافق الكاذب

ومنها : أن يتميز المؤمن الصادق من المنافق الكاذب فإن المسلمين لما أظهرهم الله على أعدائهم يوم بدر وطار لهم الصيت دخل معهم في الإسلام ظاهرا من ليس معهم فيه باطنا فاقتضت حكمة الله عز وجل أن سبب لعباده محنة ميزت بين المؤمن والمنافق فأطلع المنافقون رءوسهم في هذه الغزوة وتكلموا بما كانوا يكتمونه وظهرت مخبآتهم وعاد تلويحهم تصريحا وانقسم الناس إلى كافر ومؤمن ومنافق انقساما ظاهرا وعرف المؤمنون أن لهم عدوا في نفس دورهم وهم معهم لا يفارقونهم فاستعدوا لهم وتحرزوا منهم . قال الله تعالى : مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ [سورة آل عمران: الآية 179]

أي ما كان الله ليذركم على ما أنتم عليه من التباس المؤمنين بالمنافقين حتى يميز أهل الإيمان من أهل النفاق كما ميزهم بالمحنة يوم أحد الذي يميز به بين هؤلاء وهؤلاء فإنهم متميزون في غيبه وعلمه وهو سبحانه يريد أن يميزهم تمييزا مشهودا فيقع معلومه الذي هو غيب شهادة . وقوله استدراك لما نفاه من اطلاع خلقه على الغيب سوى الرسل فإنه يطلعهم على ما يشاء من غيبه كما قال عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (26) إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (27) [سورة الجن: الآية 26-27]

فحظكم أنتم وسعادتكم في الإيمان بالغيب الذي يطلع عليه

5- استخراج عبودية أوليائه في السراء والضراء

ومنها : استخراج عبودية أوليائه وحزبه في السراء والضراء وفيما يحبون وما يكرهون وفي حال ظفرهم وظفر أعدائهم بهم فإذا ثبتوا على الطاعة والعبودية فيما يحبون وما يكرهون فهم عبيده حقا وليسوا كمن يعبد الله على حرف واحد من السراء والنعمة والعافية .

6 - حكمة تبدل الأحوال

ومنها : أنه سبحانه لو نصرهم دائما وأظفرهم بعدوهم في كل موطن وجعل لهم التمكين والقهر لأعدائهم أبدا لطغت نفوسهم وشمخت وارتفعت فلو بسط لهم النصر والظفر لكانوا في الحال التي يكونون فيها لو بسط لهم الرزق فلا يصلح عباده إلا السراء والضراء والشدة والرخاء والقبض والبسط فهو المدبر لأمر عباده كما يليق بحكمته إنه بهم خبير بصير .

7 - الخضوع لجبروته تعالى ...

ومنها : أنه إذا امتحنهم بالغلبة والكسرة والهزيمة ذلوا وانكسروا وخضعوا فاستوجبوا منه العز والنصر فإن خلعة النصر إنما تكون مع ولاية الذل والانكسار قال تعالى :

وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ [سورة آل عمران: الآية 123] وقال لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ [سورة التوبة: الآية 25]

فهو - سبحانه - إذا أراد أن يعز عبده ويجبره وينصره كسره أولا ويكون جبره له ونصره على مقدار ذله وانكساره .

8 - رفع منازلهم

ومنها : أنه سبحانه هيأ لعباده المؤمنين منازل في دار كرامته لم تبلغها أعمالهم ولم يكونوا بالغيها إلا بالبلاء والمحنة فقيض لهم الأسباب التي توصلهم إليها من ابتلائه وامتحانه كما وفقهم للأعمال الصالحة التي هي من جملة أسباب وصولهم إليها .

9 - تحريضهم على الجد في العبودية لله

ومنها : أن النفوس تكتسب من العافية الدائمة والنصر والغنى طغيانا وركونا إلى العاجلة وذلك مرض يعوقها عن جدها في سيرها إلى الله والدار الآخرة فإذا أراد بها ربها ومالكها وراحمها كرامته قيض لها من الابتلاء والامتحان ما يكون دواء لذلك المرض العائق عن السير الحثيث إليه فيكون ذلك البلاء والمحنة تركه لغلبته الأدواء حتى يكون فيها هلاكه . ومنها : أن الشهادة عنده من أعلى مراتب أوليائه والشهداء هم خواصه والمقربون من عباده وليس بعد درجة الصديقية إلا الشهادة وهو سبحانه يحب أن يتخذ من عباده شهداء تراق دماؤهم في محبته ومرضاته ويؤثرون رضاه ومحابه على نفوسهم ولا سبيل إلى نيل هذه الدرجة إلا بتقدير الأسباب المفضية إليها من تسليط العدو .

10 - إهلاك الأعداء بعد ازدياد بغيهم

11- بسط الآيات ولا تهنوا ولا تحزنوا

ومنها : أن الله سبحانه إذا أراد أن يهلك أعداءه ويمحقهم قيض لهم الأسباب التي يستوجبون بها هلاكهم ومحقهم ومن أعظمها بعد كفرهم بغيهم وطغيانهم ومبالغتهم في أذى أوليائه ومحاربتهم وقتالهم والتسلط عليهم فيتمحص بذلك أولياؤه من ذنوبهم وعيوبهم ويزداد بذلك أعداؤه من أسباب محقهم وهلاكهم وقد ذكر سبحانه وتعالى ذلك في قوله وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (139) إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (140) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (141) [سورة آل عمران: الآيات 139- 141]

فجمع لهم في هذا الخطاب بين تشجيعهم وتقوية نفوسهم وإحياء عزائمهم وهممهم وبين حسن التسلية وذكر الحكم الباهرة التي اقتضت إدالة الكفار عليهم فقال :

إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ [سورة آل عمران: الآية 140]

فقد استويتم في القرح والألم وتباينتم في الرجاء والثواب كما قال

وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا [سورة النساء: الآية 104] فما بالكم تهنون وتضعفون عند القرح والألم فقد أصابهم ذلك في سبيل الشيطان وأنتم أصبتم في سبيلي وابتغاء مرضاتي .

12- وتلك الأيام نداولها بين الناس

ثم أخبر أنه يداول أيام هذه الحياة الدنيا بين الناس وأنها عرض حاضر

13- وليعلم الله الذين آمنوا

ثم ذكر حكمة أخرى وهي أن يتميز المؤمنون من المنافقين فيعلمهم علم رؤية ومشاهدة بعد أن كانوا معلومين في غيبه وذلك العلم الغيبي لا يترتب عليه ثواب ولا عقاب وإنما يترتب الثواب والعقاب على المعلوم إذا صار مشاهدا واقعا في الحس .

14- حب الله للشهداء

ثم ذكر حكمة أخرى وهي اتخاذه سبحانه منهم شهداء فإنه يحب الشهداء من عباده وقد أعد لهم أعلى المنازل وأفضلها وقد اتخذهم لنفسه فلا بد أن ينيلهم درجة الشهادة . وقوله

إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ [سورة آل عمران: الآية 140] تنبيه لطيف الموقع جدا على كراهته وبغضه للمنافقين الذين انخذلوا عن نبيه يوم أحد فلم يشهدوه ولم يتخذ منهم شهداء لأنه لم يحبهم فأركسهم وردهم ليحرمهم ما خص به المؤمنين في ذلك اليوم وما أعطاه من استشهد منهم فثبط هؤلاء الظالمين عن الأسباب التي وفق لها أولياءه وحزبه .

15 - وليمحص الله الذين آمنوا

ثم ذكر حكمة أخرى فيما أصابهم ذلك اليوم وهو تمحيص الذين آمنوا وهو تنقيتهم وتخليصهم من الذنوب ومن آفات النفوس وأيضا فإنه خلصهم ومحصهم من المنافقين فتميزوا منهم فحصل لهم تمحيصان تمحيص من نفوسهم وتمحيص ممن كان يظهر أنه منهم وهو عدوهم .

16 - ويمحق الكافرين

17 - أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما . ...

18 - ولقد كنتم تمنون الموت . .....

ثم ذكر حكمة أخرى وهي محق الكافرين بطغيانهم وبغيهم وعدوانهم ثم أنكر عليهم حسبانهم وظنهم أن يدخلوا الجنة بدون الجهاد في سبيله والصبر على أذى أعدائه وإن هذا ممتنع بحيث ينكر على من ظنه وحسبه . فقال :

أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ [سورةآل عمران: الآية 142] أي ولما يقع ذلك منكم فيعلمه فإنه لو وقع لعلمه فجازاكم عليه بالجنة فيكون الجزاء على الواقع المعلوم لا على مجرد العلم فإن الله لا يجزي العبد على مجرد علمه فيه دون أن يقع معلومه ثم وبخهم على هزيمتهم من أمر كانوا يتمنونه ويودون لقاءه فقال:

وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (143) [سورة آل عمران: الآية 143] . قال ابن عباس : ولما أخبرهم الله تعالى على لسان نبيه بما فعل بشهداء بدر من الكرامة رغبوا في الشهادة فتمنوا قتالا يستشهدون فيه فيلحقون إخوانهم فأراهم الله ذلك يوم أحد وسببه لهم فلم يلبثوا أن انهزموا إلا من شاء الله منهم فأنزل الله تعالى :

وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (143) [سورة آل عمران: الآية 143]

19 - وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (144) [سورة آل عمران: الآية 144]

وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (145)[سورة آل عمران: الآية 145]

وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (146) [سورة آل عمران: الآية 146]

ومنها : أن وقعة أحد كانت مقدمة وإرهاصا بين يدي موت رسول الله ص فثبتهم ووبخهم على انقلابهم على أعقابهم إن مات رسول الله ص أو قتل بل الواجب له عليهم أن يثبتوا على دينه وتوحيده ويموتوا عليه أو يقتلوا فإنهم إنما يعبدون رب محمد ص وهو حي لا يموت فلو مات محمد أو قتل لا ينبغي لهم أن يصرفهم ذلك عن دينه وما جاء به فكل نفس ذائقة الموت وما بعث محمد ص ليخلد لا هو ولا هم بل ليموتوا على الإسلام والتوحيد فإن الموت لا بد منه سواء مات رسول الله ص أو بقي ولهذا وبخهم على رجوع من رجع منهم عن دينه لما صرخ الشيطان إن محمدا قد قتل فقال

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (144)[سورة آل عمران: الآية 144] والشاكرون هم الذين عرفوا قدر النعمة فثبتوا عليها حتى ماتوا أو قتلوا فظهر أثر هذا العتاب وحكم هذا الخطاب يوم مات رسول الله ص وارتد من ارتد على عقبيه وثبت الشاكرون على دينهم فنصرهم الله وأعزهم وظفرهم بأعدائهم وجعل العاقبة لهم ثم أخبر سبحانه أنه جعل لكل نفس أجلا لا بد أن تستوفيه ثم تلحق به فيرد الناس كلهم حوض المنايا موردا واحدا وإن تنوعت أسبابه ويصدرون عن موقف القيامة مصادر شتى فريق في الجنة وفريق في السعير ثم أخبر سبحانه أن جماعة كثيرة من أنبيائه قتلوا وقتل معهم أتباع لهم وهن من بقي منهم لما أصابهم في سبيله وما ضعفوا وما استكانوا وما وهنوا عند القتل ولا ضعفوا ولا استكانوا بل تلقوا الشهادة بالقوة والعزيمة والإقدام

فلم يستشهدوا مدبرين مستكينين أذلة بل استشهدوا أعزة كراما مقبلين غير مدبرين والصحيح أن الآية تتناول الفريقين كليهما . ثم أخبر سبحانه عما استنصرت به الأنبياء وأممهم على قومهم من اعترافهم وتوبتهم واستغفارهم وسؤالهم ربهم أن يثبت أقدامهم وأن ينصرهم على أعدائهم فقال

وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (147) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (148) [سورة آل عمران: الآية 147-148] لما علم القوم أن العدو إنما يدال عليهم بذنوبهم وأن الشيطان إنما يستزلهم ويهزمهم بها وأنها نوعان تقصير في حق أو تجاوز لحد وأن النصرة منوطة بالطاعة قالوا : ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا ثم علموا أن ربهم تبارك وتعالى إن لم يثبت أقدامهم وينصرهم لم يقدروا هم على تثبيت أقدام أنفسهم ونصرها على أعدائهم فسألوه ما يعلمون أنه بيده دونهم وأنه إن لم يثبت أقدامهم وينصرهم لم يثبتوا ولم ينتصروا فوفوا المقامين حقهما : مقام المقتضي وهو التوحيد والالتجاء إليه سبحانه ومقام إزالة المانعمن النصرة وهو الذنوب والإسراف ثم حذرهم سبحانه من طاعة عدوهم وأخبر أنهم إن أطاعوهم خسروا الدنيا والآخرة وفي ذلك تعريض بالمنافقين الذين أطاعوا المشركين لما انتصروا وظفروا يوم أحد . ثم أخبر سبحانه أنه مولى المؤمنين وهو خير الناصرين فمن والاه فهو المنصور .

20 - وليبتلي الله ما في صدوركم

ثم أخبر سبحانه عن حكمة أخرى في هذا التقدير هي ابتلاء ما في صدورهم وهو اختبار ما فيها من الإيمان والنفاق فالمؤمن لا يزداد بذلك إلا إيمانا وتسليما والمنافق ومن في قلبه مرض لا بد أن يظهر ما في قلبه على جوارحه ولسانه .

21 - وليمحص ما في قلوبكم

ثم ذكر حكمة أخرى : وهو تمحيص ما في قلوب المؤمنين وهو تخليصه وتنقيته وتهذيبه فإن القلوب يخالطها بغلبات الطبائع ؟ وميل النفوس وحكم العادة وتزيين الشيطان واستيلاء الغفلة ما يضاد ما أودع فيها من الإيمان والإسلام والبر والتقوى فلو تركت في عافية دائمة مستمرة لم تتخلص من هذه المخالطة ولم تتمحص منه فاقتضت حكمة العزيز أن قيض لها من المحن والبلايا ما يكون كالدواء الكريه لمن عرض له داء إن لم يتداركه طبيبه بإزالته وتنقيته من جسده وإلا خيف عليه منه الفساد والهلاك فكانت نعمته سبحانه عليهم بهذه الكسرة والهزيمة وقتل من قتل منهم تعادل نعمته عليهم بنصرهم وتأييدهم وظفرهم بعدوهم فله عليهم النعمة التامة في هذا وهذا (181) .

---

181) زاد المعاد ، 3/197 - 3 /204

الشعر في معركة أحد

وحفلت كتب السيرة بالكثير من الشعر الصحيح والمنحول في تبيان وجهتي النظر المتصارعتين في معركة أحد ومن ذلك قول شاعر النبي ص حسّان بن ثابت الأنصاري في التعريض بزعماء قريش في هذه المناسبة (182):

سقتم كنانة جهلا من سفاهتكم إلى الرسول ص جند اللّه مخزيها

أوردتموها حياض الموت ضاحية فالنار موعدها والقتل لاقيها

جمّعتموها أحابيشا بلا حسب أئمّة الكفر غرّتكم طواعيها

ألا اعتبرتم بخيل اللّه إذ قتلت أهل القليب ومن ألقينه فيها

182) ابن هشام ، السيرة 3/ 132.

كم من أسير فككناه بلا ثمن وجزّ ناصية كنّا مواليها

وقال حسان في قصيدة أخري يرد فيها على ابن الزبعري: (183)

أشاقك من أمّ الوليد ربوع بلاقع ما من أهلهنّ جميع

عفاهنّ صيفيَ الريّاح وواكف من الدلو رجّاف السّحاب هموع

فلم يبق إلّا موقد النّار حوله رواكد أمثال الحمام كنوع

فدع ذكر دار بددت بين أهلها نوى لمتينات الحبال قطوع

وقل إن يكن يوم بأحد يعدّه سفيه فإنّ الحقّ سوف يشيع

فقد صابرت فيه بنو الأوس كلهم وكان لهم ذكر هناك رفيع

183) ابن هشام ، السيرة 3/ 142- 143

وحامى بنو النّجار فيه وصابروا وما كان منهم في اللّقاء جزوع

أمام رسول اللّه لا يخذلونه لهم ناصر من ربّهم وشفيع

ج

وفوا إذ كفرتم باخسين بربّكم ولا يستوي عبد وفي ومضيع

يكفّ رسول اللّه حيث تنصّبت على القوم مما قد يثرن نقوع

ج

أولئك قوم سادة من فروعكم وفي كلّ قوم سادة وفروع

فلا تذكروا قتلى وحمزة فيهم قتيل ثوى للّه وهو مطيع

فإن جنان الخلد منزلة له وأمر الذي يقضي الأمور سريع

وقتلاكم في النار أفضل رزقهم حميم معا في جوفها وضريع

وقال عمرو بن العاص من قصيدة له طويلة (184):

لما رأيت الحرب ينزو شرها بالرضف نزوا

وتناولت شهباء تلحو الناس بالضراء لحوا

أيقنت أن الموت حق والحياة تكون لغوا

حملت أثوابي على عتد يبذ الخيل رهوا

سلس إذا نكبن في البيداء يعلو الطرف علوا

184) ابن هشام ، السيرة 3/ 146- 147

وإذا تنزل ماؤه من عطفه يزداد زهوا

ج

زبد كيعفور الصريمة راعه الرامون دحوا

شنج نساه ضابط للخيل إرخاء وعدوا

ففدى لهم أمي غداة الروع إذ يمشون قطوا

سيرا إلى كبس الكتيبة إذ جلته الشمس جلوا

قال ابن إسحاق: فأجابه كعب بن مالك (185):

أبلغ قريشا وخير القول أصدقه والصدق عند ذوي الألباب مقبول

إن قد قتلنا بقتلانا سراتكم أهل اللّواء ففيما يكثر القيل

ويوم بدر لقيناكم لنا مدد فيه مع النّصر ميكال وجبريل

إن تقتلونا فدين الحقّ فطرتنا والقتل في الحقّ عند اللّه تفضيل

وإن تروا أمرنا في رأيكم سفها فرأي من خالف الإسلام تضليل

إنّا بنو الحرب نمريها وننتجها وعندنا لذوي الأضغان تنكيل

185) ابن هشام ، السيرة 3/ 147- 149

وقال حسّان يذكر عدّة أصحاب اللواء يوم أحد:

منع النّوم بالعشاء الهموم وخيال إذا تغور النّجوم

من حبيب أضاف قلبك منه سقم فهو داخل مكتوم

يالقومي هل يقتل المرء مثلي واهن البطش والعظام سئوم

لو يدبّ الحوليّ من ولد الذ ر عليها لأندبتها الكلوم

شأنها العطر والفراش ويعلو ها لجين ولؤلؤ منظوم

لم تفتها شمس النهار بشيء غير أن الشباب ليس يدوم

لا تسبّنّني فلست بسبّي إنّ سبّي من الرّجال الكريم

ما أبالي أنبّ بالحزن تيس أم لحاني بظهر غيب لئيم

ولي البأس منكم إذ رحلتم أسرة من بني قصي صميم

تسعة تحمل اللواء وطارت في رعاع من القنا مخزوم

وأقاموا حتّى أبيحوا جميعا في مقام وكلهم مذموم

بدم عاتك وكان حفاظا أن يقيموا إن الكريم كريم

وقريش تفرّ منا لواذا أن يقيموا وخفّ منها الحلوم

لم تطق حمله العواتق منهم إنما يحمل اللواء النّجوم (186)

186) ابن هشام ، السيرة 3/ 149- 150، قال ابن هشام عن هذه القصيدة بأنها أحسن ما قيل.

وقال كعب بن مالك في يوم أحد:

سائل قريشا غداة السّفح من أحد ماذا لقينا وما لاقوا من الهرب

كنا الأسود وكانوا النّمر إذ زحفوا ما إن نراقب من آل ولا نسب

فكم تركنا بها من سيّد بطل حامي الذمار كريم الجدّ والحسب

فينا الرّسول شهاب ثم يتبعه نور مضيء له فضل على الشّهب

الحق منطقه والعدل سيرته فمن يجبه إليه ينج من تبب

نجد المقدّم، ماضي الهمّ معتزم حين القلوب علي رجف من الرّعب

يمضي ويذمرنا من غير معصية كأنه البدر لم يطبع على الكذب

بدا لنا فاتّبعناه نصدّقه وكذّبوه فكنّا أسعد العرب

جالوا وجلنا فما فاءوا وما رجعوا ونحن نثفنهم لم نأل في الطّلب

ليسا سواء وشتّى بين أمرهما حزب الإله وأهل الشّرك والنّصب(187)

187) ابن هشام ، السيرة 161/3، الروض الأنف ، 354/3

أهم الأحداث بين أحد والخندق

لقد ابتلي المسلمون في أحد أشد الابتلاء، وكان من نتائج ما وقع لهم في أحد أن تداعت عليهم القبائل للنيل منهم ، وكادت تذهب ريحهم، وتزول هيبتهم عن النفوس، وزادت المتاعب الداخلية والخارجية على المؤمنين وأحاطت الأخطار بالمدينة من كل جانب، وكاشف اليهود والمنافقون والأعراب بالعداء السافر، وهمت كل طائفة منهم أن تنال من المؤمنين، بل طمعت في أن تقضي عليهم وتستأصل شأفتهم . فطمعت بنو أسد في الدولة الإسلامية، وشرع خالد بن سفيان الهزلي لجمع الحشود لكي يهاجم بها المدينة، وتجرأت عَضَل والقارة على خداع المسلمين، وقام عامر بن الطفيل يقتل القرّاء الدعاة الآمنين، وحاولت يهود بني النضير أن تغتال رسول الله -ص-، ولكن حكمة الحبيب محمد ص صرفت وجوه التيارات، وأعادت للمسلمين هيبتهم المفقودة، وأكسبتهم العلو والمجد من جديد . فكانمن شجاعته فأن واجه هذه الأخطار بسرعة وتخطيط قبل أن تجتمع كلمتهم على أمر سواء.

سريّة أبي سلمة لتأديب بني أسد:

بلغت النبي ص أخبار الاستعدادات التي قام بها بنو أسد بن خزيمة بقيادة طليحة الأسدي من أجل غزو المدينة طمعا في خيراتها وانتصارا لشركهم، ومظاهرة لقريش في عدوانها على المسلمين. وقد سارع النبي ص إلى تشكيل سريّة من مائة وخمسين رجلا من المهاجرين والأنصار، وأمّر عليهم أبا سلمة بن عبد الأسد، أرسلهم إلى ديار بني أسد، فباغتوهم على ماء لهم في ديارهم، غير أنّ بني أسد سرعان ما تفرقوا تاركين ماشيتهم وإبلهم غنيمة للمسلمين من هول المباغتة .

وكان مبعث هذه السرية حين استهل هلال المحرم سنة 4 هـ . وعاد أبو سلمة وقد نفر عليه جرح كان قد أصابه في أحد، فلم يلبث حتى مات (188).

لقد تجلت في هذه السرية عدة أمور عسكرية تدل علي مدي الكفاءة العسكرية، منها : مهارة التخطيط الحربي، عند الحبيب محمد -ص- حيث فرق أعداءه قبل أن يجتمعوا، فذهلوا لمجئ سرية أبي سلمة وهم يظنون أن المسلمين قد أضعفتهم وقعة أحد وأذهلتهم عن أنفسهم،

188) الواقدي، المغازي ، 1/ 340، ابن سعد ، الطبقات ، 2/ 50 ، ابن هشام ، السيرة ، 4/ 344، ابن كثير ، البداية والنهاية ، 4/ 70

فأصيب المشركون بالرعب من المسلمين ووهت عزيمتهم، وانشغلوا بأنفسهم عن مهاجمة المدينة، ويقظة المخابرات الحربية الإسلامية التي رصد تحركات بنو أسد ، وسبقتهم في التحرك قبل أن يشرعوا في تنفيذ مخططاتهم ،

ودقة المسلمين في الرصد الحربي واختيارهم التوقيت الصحيح والطريق المناسب حيث وصلوا إلى الأعداء قبل أن يعلموا عنهم أي شيء رغم بعد المسافة، وكان هذا هو أهم عوامل نجاح المسلمين في هذه السرية وتركت هذه السرية لدي الأعداء شعوراً مؤثراً على معنوياتهم، ألا وهو قناعتهم بقدرة المسلمين على الاستخفاء والقيام بالحروب الخاطفة المفاجئة تجعلهم يمتلئون رعباً منهم ويتوقعون الإغارة في أي وقت، وهذا الشعور حملهم على الاعتراف بقوة المسلمين ومسالمتهم(189).

189) الحميدي ، التاريخ الاسلامي ،6 /23

سريّة عبد اللّه بن أنيس:

كان على المسلمين في المدينة أن يواجهوا أعداءهم المتربصين في كل ناحيةمن نواحي الجزيرة العربية من قريش الموتورين مرورا باليهود الخائنين إلى الأعراب الطامعين في خيرات المدينة، ولكن عين النبي ص لم تكن تغفل عنهم ولو للحظة حيث كان يرصد تحركاتهم، وسكناتهم، ويتحسس أخبارهم عن طريق شبكة منظمة من العيون والجواسيس المبثوثين في مناطق الأعداء ، والتي ساهمت بشكل كبير وفعال في موضع النبي ص في الصورة دائما، فكان باستمرار يسبق الأحداث ويفاجىء أعداءه بمبادرة عجيبة تقضي على مخططاتهم العدوانية في مهدها.وكان من هؤلاء رجل من أشد الأعراب وشياطينهم يدعى خالد بن سفيان الهذلي ، وصلت المعلومات إلى رسول الله ص عن هذا الأعرابي بأنهيتحرك -وبنشاط كبير وملحوظ- لحشد عدد كبير من الأحابيش والأعراب ليغزو بهم المدينة وعلى الفور استدعى النبي ص أحد رجال المهمات الصعبة المعدودين مغوارٍ من أبطال الصحابة وذي باع وخبرة في هذا المضمار ذلكم هو عبد الله بن أنيس ا . إن تخير الحبيب محمد ص فهذا الصحابي المغوار لهذه المهمة البالغة الصعوبة يعطي دلالة واضحة على معرفته عليه الصلاة والسلام الشديدة برجاله

حيث كان يكل لكل منهم المهمة التي تناسب وضعه وإمكانيته، يعني الرجل المناسب في المكان المناسب، وهو عمل قائم على التخطيط السليم والدقة في الاختيار

وكون رسول الله ص يختار لهذه السرايا بعض رجاله لا يعني بالضرورة أن بقية الصحابة لا يصلحون لهذه المهمات، فهم جميعا كانوا لا يهابون الموت بل ويتحرقون دائما للشهادة في سبيل الله، ولكن المواقف الحساسة التي تمر بها مثل هذه السرايا تتطلب رجالا فيهم صفات مميزة كعبد الله بن أنيس، وعبد الله بن رواحة، وعبد الله بن عتيك، ومحمد بن سلمة، وعمرو بن أمية وغيرهم يأجمعين.

ولنستمع إلى الحوار التالي الذي دار بين رسول الله صوبين عبد الله بن أنيس ا والذي يعتبر من دلائل نبوته عليه الصلاة والسلام كما يوضح صفة ذلك الأعرابي المخيفة والتي كانت تؤثر حتى في أشد الرجال صرامة وقوة أمثال عبد الله بن أنيس، والذي تبين من خلال هذا الحوار مدى ما كان يتمتع به من رباطة جأش وقوة شكيمة، حيث تحددت أبعاد المهمة الخطيرة التي أنيطت به.

قال عبد الله: "دعاني رسول الله ص فقال: "إنه قد بلغني أن خالد بن سفيان بن نبيح يجمع لي الناس ليغزوني وهو بعرنة (190)، فأته فاقتله، قلت: يا رسول الله انعته لي(191) حتى أعرفه قال: "إذا رأيته وجدت له قشعريرة" (192).

بهذه الكلمات الموجزة تزود عبد الله بن أنيس ا معلومات كافية ومهمة عن الهدف المقصود مكانه وصفته .وينطلق عبد الله صي مسيره الاقترابي نحو الهدف، عدته اليقين والتوكل على الله، وسلاحه سلاح الراكب، يقول ا: "فخرجت متوشحا بسيفي حتى وقعت عليه، وهو بعرنة مع ظعن(193)، يرتاد لهن منزلا، وحين كان وقت العصر، فلما رأيته وجدت ما وصف لي رسول الله صمن القشعريرة، فأقبلت نحوه " فقلت: إني أخاف أن يكون بيني وبينه ما أن أؤخر الصلاة، فانطلقت أمشي، وأنا أصلي أومىء إيماء نحوه، فلما دنوت منه، قال لي: من أنت؟ قلت رجل من العرب بلغني أنك تجمع لهذا الرجل، فجئتك في ذاك، قال: إني لفي ذاك، فمشيت معه ساعة، حتى إذا أمكنني علوته بسيفي حتى برد(194)".

---

190) وادي عرنة: هو الوادي الفحل الذي يخترق أرض المغمس، فيمر بطرف عرفة من الغرب عند مسجد نمرة ثم يجتمع مع وادي نعمان غير بعيد من عرفة ثم يأخذ الواديان اسم عرنة، فيمر جنوب مكة على حدود الحرم، ثم يُغرب حتى يفيض في البحر جنوب جدة على قرابة 30 كيلو وهو من الأودية الفحول ذات السيول الجارفة وزراعته قليلة، فيه زرائع على الضخ الآلي، وبطن عرنة هو بطن الوادي الذي فيه مسجد عرفة. أنظر :البكري، معجم ما استعجم ،1191/4

191) أي: صفه لي.

192) أي رعدة. (القاموس: اقشعر) وعند ابن هشام: إنك إذا رأيته أذكرك الشيطان. السيرة ، 619/4

193) الظعن: جمع ظعينة وهو الهودج فيه امرأة، والمرأة ما دامت في الهودج. القاموس: ظعن.

194) أي: مات.

"ثم خرجت وتركت ظعائنه مكبات عليه، فلما قدمت إلى رسول الله ص فرآني، قال: "أفلح الوجه" ، قلت: قتلتُه يا رسول الله، قال: صدقت، قال: ثم قام معي رسول الله ص فدخل بيته فأعطاني عصا، فقال: أمسك هذه عندك يا عبد الله بن أنيس، قال: فخرجت بها على الناس، فقالوا:ما هذه العصا قال: قلت: أعطانيها رسول الله صوأمرني أن أمسكها، قالوا: أولا ترجع إلى رسول الله ص تسأله عن ذلك، قال: فرجعت إلى رسول الله ص فقلت: يا رسول الله لم أعطيتني هذه العصا؟ قال: آية بيني وبينك يوم القيامة، إن أقل الناس المختصرون(195) يومئذ يوم القيامة، فقرنها عبد الله بسيفه فلم تزل معه حتى إذا مات بها فضمت في كفنه، ثم دُفنا جميعا" (196).

وهكذا لم تكن المكافأة على هذا العمل العظيم الجريء مادية دنوية كما يتمناه الكثير ممن يقوم بالمهمات الصعبة في جيوش العالم قديما وحديثا، بل كانت أسمى من ذلك وأعظم فهي وسام شرف أخروي قليل من يناله(197).

---

195) المخصرة: ما يختصره الإنسان بيده فيمسكه من عصا أو عكازه، أو مقرعة أو قضيب، وقد يتكىء عليه. ابن الأثير، النهاية ، 36/2.

196) الحديث أخرجه أبو داود مختصرا في كتاب الصلاة، باب صلاة الطالب ، سنن (41/2-42)، عون المعبود (129/4)، وسكت عنه هو والمنذري، وحسن الحافظ إسناده في الفتح. ابن حجر، فتح ، 437/2، والشامي في السبل (57/6).وانظر : ابن هشام، السيرة (620/4-619)، ريك بن محمد بريك أبو مايلة العمري ،السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة ص156 - 159

197) بريك بن محمد بريك أبو مايلة العمري ،السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة ، ص159

ويظهر في هذا الخبر دليل من دلائل نبوته عليه الصلاة والسلام فهو قد وصف ابن نبيح لعبد الله بن أنيس وصفًا دقيقًا دون أن يراه حتى إن ابن أنيس عندما رد على رسول الله ص متعجبا كما وقع في رواية الواقدي: "يا رسول الله ما فرقت من شيء قط، قال له رسول الله ص: بلى آية ما بيني وبينه أن تجد له قشعريرة إذا رأيته"(198).

وفعلاً وجده على الصفة التي ذكر رسول الله ص، يقول عبد الله: "فلما رأيته هبته وفرقت منه، فقلت: صدق الله ورسوله"(199).

---

198) الواقدي، مغازي ،532/2

199) من رواية موسى بن عقبة. البيهقي، دلائل ،41/4،السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة ، ص 161

بعث الرجيع(200)

اختلفت مرويات سرية الرجيع فيما بينها كثيراً حول السبب الذي من أجله بعث النبي -ص-، وفي الوقت الذي يورد البخاري بأنه إنما بعث عيناً لتجمع المعلومات عن العدو(201)، فإن مرويات أخرى بأسانيد صحيحة ورد فيها أنه قدم على رسول الله -ص- رهط من قبيلتي عضل والقارة المضريتين إلى المدينة وقالوا: (إن فينا إسلاماً فابعث معنا نفراً من أصحابك يفقهونا ويقرئونا القرآن ويعلمونا شرائع الإسلام) ويظهر أن قبيلة هذيل قد سعت للثأر من المسلمين لخالد بن سفيان الهذلي فلجأت إلى الخديعة والغدر، وقد جزم الواقدي (202) بأن السببهو أن بني لحيان وهم حي من هذيل، مَشَتْ إلى عضل والقارة وجعلت لهم جعلاً ليخرجوا إلى رسول الله - ص- ويطلبون منه أن يُخرج معهم من يدعوهم إلى الإسلام ويفقههم في الدين، فيكمنوا لهم ويأسروهم ويصيبوا بهم ثمناً في مكة(203)

200) الرَّجيع: بفتح أوله، وبالعين المهملة في آخره -ماء لهذيل بناحية الحجاز على صدر الهدأة، والرجيع: ماء يعرف اليوم باسم الوطية، يقع شمال مكة على قرابة سبعين كيلو، قبيل عسفان إلى اليمن، في طرف شامية ابن حمادي من الشمال، بسفح حرة بني جابر الجنوبي، وشامية ابن حمادي هي أسفل الهدة، والهدة وادٍ يمر شمال مكة، وعلى يمين الجادة إلى عسفان، والرجيع اليوم من ديار حرب، لبشر خاصة منهم. انظر اين هشام، سيرة ،170/3 ، والبكري، معجم ، 641/2 ، معالم مكة ، ص113 .

201) البخاري رقم 4086.

202) مغازي الواقدي ،354/1-355.

203) نظرة النعيم ،314/1.

وقد حاول بعض المتأخرين الجمع بين الروايات وجعل مهمة السرية ازدواجية مع إمكانية ذلك (204) استطلاعية لرصد نشاط قريش والأعراب المتزايد عقب أحد وتحركاتهم المشبوهة، وتعليمية تلبيةً لرغبة بعض الأعراب الذين أظهروا الإسلام وطلبوا بعض المعلمين من صحابة رسول الله صليفقهوهم في الدين (205)

علي أي حال بعث رسول الله ص دورية قوتها عشرة أفراد(206)

---

204) قال الزرقاني: ويجمع بأنه لما أراد بعثهم عيونا، وافق مجيء النفر في طلب من يفقههم، فبعثهم في الأمرين. الزرقاني، شرح (65/2). وقال الدكتور أكرم ضياء العمري بعد سياقه لرواية ابن إسحاق: ولكن البخاري يقول: إن مهمة الوفد استطلاعية في حين يذكر ابن إسحاق أنهم معلمون، ويمكن الجمع بين المهمتين. المجتمع المدني ، ص88 .

205) بريك بن محمد بريك أبو مايلة العمري ، السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة ، 229/1

206) اختلف أهل المغازي في عدد أفراد تلك السرية، فمنهم من وافق أهل الحديث كابن سعد الذي جزم بأنهم كانوا عشرة سمي منهم سبعة فقط هم: عاصم بن ثابت، ومرثد بن أبي مرثد، وعبد الله بن طارق، وخبيب بن عدي، وزيد بن الدُّثنة، وخالد بن أبي البكير، ومعتب بن عبيد. ابن سعد، طبقات ، 55/2 .

وقال ابن حجر معلقا على عدم تسمية الثلاثة الباقين: فلعل الثلاثة الآخرين كانوا أتباعا لهم فلم يحصل الاعتناء بتسميتهم. فتح الباري (380/7). وتردد الواقدي في روايته فذكر أنهم سبعة، ثم قال: ويقال كانوا عشرة وأميرهم مرثد بن أبي مرثد، ويقال : أميرهم عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح.الواقدي: مغازي ، 354/1-355 .

وجزم ابن إسحاق بأنهم ستة، وذكر أن أميرهم مرثد بن أبي مرثد، سيرة ، 169/3 .أما موسى بن عقبة فكانت عنه روايتان: رواية وافق فيها ابن إسحاق، وأخرى لم يذكر فيها سوى أربعة سماهم. انظر البيهقي. دلائل (326-327/3).وذكر ابن سيد الناس أنه شاهد في كتاب الطبري: "ذيل المذيل" قصيدة لحسان يرثي فيها أصحاب الرجيع الستة:

ألاَ ليتني فيها شَهِدتُ ابنَ طارق	وزيدًا وما تُغني الأماني ومرثدًا
ودافعت عن حبي حبيبٍ وعاصمٍ	وكان شفاءً لو تداركتُ خالدًا

ابن سيد الناس. عيون ، 59/1-60 .

وأيَّد بعض المتأخرين من أهل المعازي روايات الصحيح باعتبارها أصح إسنادا.

انظر السهيلي، الروض ، 184/6 ، والمقريزي، إمتاع ، 174/1 . بينما رجع ابن حجر أن قائد السرية عاصم بن ثابت بناء على رواية الصحيح، ولكنه ذكر في موضع آخر أن البعض حاول الجمع بين رواية الصحيح ورواية أهل المغازي بأن أمير السرية مرثد، وأمير العشرة عاصم، بناء على التعدد. انظر ابن حجر. فتح (380/7).

ومما يجدر ذكره أن مرثدا ورد ذكره في شعر حسان بن ثابت الذي نقله ابن إسحاق كقائد لأصحاب السرية،ولكن ابن هشام ذكر أن أكثر أهل العلم بالشعر ينكرها لحسان. انظر ابن هشام، سيرة ، 183/3 .

بقيادة عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح ا ، حتى إذا كانوا بالهدأة (207) هو بين عسفان ومكة- ذُكروا لحي من هذيل يقال لهم بنو لحيان فنفروا لهم قريبا من مائتي رجل، كلهم رام، فاقتصوا آثارهم حتى وجدوا مأكلهم تمرًا -تزودوه- من المدينة، فقالوا: هذا تمر يثرب، فاقتصوا آثارهم(208).

فلما رآهم عاصم انسحب بأصحابه إلى مكان مرتفع تجنبا للاشتباك المباشر -الذي كان فيه القضاء التام عليهم- فاللحيانيون يفوقونهم في العدد والعدة بكثير.

وما أن وصل القوم حتى أحاطوا بهم، ثم أخذوا يفاوضونهم على الاستسلام المشروط بالأمان إن هم نزلوا إليهم دون مقاومة، ولكن عاصم بن ثابت ا قائد السرية رفض ذلك العرض بشدة معطيا من نفسه القدوة لأصحابه وهو يقول: "أما أنا فوالله لا أنزل اليوم في ذمة كافر، اللهم أخبر عنا نبيك"(209).وعلى الرجيع حصلت ملحمة جهادية رائعة في معركة غير متكافئة، سقط خلالها الأبطال عاصم وستة من رفاقه شهداء في سبيل الله بعد أن قاوموا ببسالة شديدة، لكن إرادة الله عز وجل جعلت الهذليين الكثر والمهرة في الرمي يصطادونهم بنبالهم التي حصدوهم من كل جانب.

207) الهدأة: قال البلادي: الهدأة واد بمر شمال مكة، وعلى يمين الجادة إلى عسفان. البلادي: معجم (138).
208) انظر ابن حجر، فتح (166/6).
209) انظر ابن حجر، فتح (166/6).

"وبقي خبيب وزيد، ورجل آخر(210)، فأعطوهم العهد والميثاق، فلما أعطوهم العهد والميثاق نزلوا إليهم"(211)، ومعهم العذر في ذلك، لأن رفضهم الاستسلام هو حكم بالقضاء المبرم عليهم، ففضلوا الإبقاء على أنفسهم تحيّزاً لرسول الله صوأملافي مدد أو نجدة تأتيهم من عنده تكون فيها قوة لاستئناف قتال يكون فيه ولو بعض التكافؤ ضد بني لحيان(212)، لكن اللحيانيين، وكما توقع عاصم من قبل غدروا بهم "فلما استمكنوا منهم حلُّوا أوتار قسيهم فربطوهم بها، فقال الرجل الثالث الذي معهما: هذا أول الغدر، فأبى أن يصحبهم، فجرّروه وعالجوه أن يصحبهم فلم يفعل فقتلوه، وانطلقوا بخبيب وزيد حتى باعوهما بمكة، فاشترى خبيباً بنو الحارث بن عامر بن نوفل، وكان خبيب هو قَتَلَ الحارث يوم بدر.

فمكث عندهم أسيراً حتى إذا أجمعوا قتله استعار موسى من بعض بنات الحارث ليستحد بها فأعارته، قالت: فغفلت عن صبي لي. فدرج إليه حتى أتاه فوضعه على فخذه، فلما رأيتُه فزِعت فزعة عرف ذلك مني، وفي يده الموس فقال: أتخشين أن أقتله، ما كنت لأفعل ذلك إن شاء الله(213) .

210) تذكر كتب المغازي أن اسمه عبد الله بن طارق. انظر ابن هشام، سيرة ، 171/3، والواقدي، مغازي ، 357/2 ، وابن سعد، طبقات ، 56/2 .

211) انظر ابن حجر، فتح ، 378/7 .

212) لقد صدق توقع خبيب وصاحبه، فإن رسول الله صأرسل عدَّة سرايا إلى بني لحيان وقاد بنفسه غزوة إليهم، ولكن مشيئة الله سبحانه وتعالى وقضاءه كانت قد نفذت في خبيب وصاحبه، ولا رادَّ لقضائه.أنظر: السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة ، ص 230

213) انظر ابن حجر، فتح (378/7).

نعم هذه هي أخلاق الإسلام التي أدهشت الكفار قديما وحديثا، لأنهم تعودوا على الانتقام العشوائي، ولا غرو في ذلك إذا كانوا يستقون أخلاقهم من قانون الغاب بينما صدر أخلاق المسلمين القرآن الذي من مبادئه

قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ [سورة الأنعام: الآية 164] (214).وهذه المرأة التي أسلمت فيما بعد(215) ذكرت ما شاهدته من خبيب حيث تقول: "ما رأيت أسيرا قط خيرا من خبيب، لقد رأيته يأكل من قطف عنب وما بمكة يومئذ ثمرة، وإنه لموثق في الحديد، وما كان إلاّ رزق رزقه الله، فخرجوا بهمن الحرم ليقتلوه، فقال: دعوني أصلي ركعتين. ثم انصرف إليهم فقال: لولا أن تروا أن ما بي جزع من الموت لزدت، فكان أول من سنّ الركعتين عند القتل هو. ثم قال اللهم أحصهم عددا"(216).

---

214) السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة ، ص 231

215) روى ابن حجر: أن اسمها زينب بنت الحارث وهي أخت عقبة بن الحارث الذي قتل خبيبا، وقيل: امرأته، ووقع عند ابن إسحاق أن التي رأت القطف في يد خبيب هي ماوية مولاة حجين بن أبي إهاب، والتي حُبس في بيتها.

216) انظر البخاري، الصحيح (41/5).

ثم قتلوه ا وهو يحمس نفسه بأبيات يذكر فيها غربته وتألب المشركين عليه:

ولست أبالي حين أقتل مسلمًا   على أي شِقٍّ كان لله مصرعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ   يبارك على أوصال شلوٍ ممزع

"وأما زيد بن الدثنة فاشتراه صفوان بن أمية فقتله بأبيه أمية بن خلف، قتله نسطاس مولى بني جمح"(217).

ويذكر ابن إسحاق أن أبا سفيان قد سأله مختبرا ثباته: "أنشدك الله يا زيد أتحب أن محمدا عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه وأنك في أهلك؟ قال: والله ما أحب أن محمدا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأني جالس في أهلي"(218).

هذه الرواية(219) على ضعفها حديثيّا إلا أننا نستأنس بها تاريخيّا على مدى الحب المتمكن في قلوب أصحاب النبي ص له، ذلك الحب الذي لا يتزعزع حتى في أصعب اللحظات حراجة، وهكذا نراهم يفدونه بأنفسهم أن تصيبه شوكة آمنا في بيته, وهو بين يدي أعدائهم يعاينون الموت، فما أخلصها من تضحية،

217) انظر الطبراني، المعجم (261/5).

218) انظر ابن هشام، سيرة ، 172/3 ، كما رواه الواقدي، مغازي ، 362/2 .

219) في رواية عروة أن المشركين سألوا خبيبا مثل ذلك وأجابهم بمثل جواب زيد، فإن صحّت الروايتان كان كلّ منهما سئل عن ذلك من جانب المشركين وأجابهم بجواب واحد يمثل حبًّا طاغيًا لرسول الله ص من جانب أصحابه.

وما أعظمه حبّا أدهش أعداءهم في ذلك الوقت، يقول أبو سفيان في سياق الرواية السابقة "ما رأيت من الناس أحدًا كحب أصحاب محمد محمدًا"(220).

وقد استجاب الله عز وجل "لعاصم بن ثابت يوم أصيب، فأخبرالنبي ص أصحابه خبرهم وما أصيبوا، وبعث ناس من كفار قريش إلى عاصم حين حُدثوا أنه قتل ليؤتَوا بشيء منه يعرف، وكان قد قتل رجلا من عظمائهم يوم بدر(221) فَبُعِثَ على عاصم مثل الظلة من الدَّبر(222). فحمتهم من رسولهم، ص لم يقدروا على أن يقطعوا من لحمه شيئا(223).وهكذا فقدت الدعوة إلى الله بعض فرسانها، وحزن رسول الله ص و"المسلمون لفقدانهم عاصما وصحبه، ولمصرع أسيرهم على هذا النحو الفاجع فقد خسروا فريقا من الدعاة الأكفاء يحتاج إليهم الإسلام في هذه الفترةمن تاريخه"(224).

وقد ذكر أرباب الحديث في هذه الحادثة عدد من الفوائد ، حيث قال ابن حجر :

إن للأسير أن يمتنع من قبول الأمان، ولا يمكّن من نفسه ولو قُتل، أنفة من أنه يجري عليه حكم كافر، وهذا إذا أراد الأخذ بالشدة،

---

220) انظر ابن هشام، سيرة ، 172/3 ، والواقدي، مغازي ، 362/2 .

221) قال ابن حجر: لعل العظيم المذكور عقبة بن أبي معيط، فإن عاصما قتله صبرا بأمر النبي **ص**بعد أن انصرفوا من بدر. ووقع عند ابن إسحاق، وكذا في رواية بريدة بن سفيان: أن عاصما لما قتل أرادت هذيل أخذ رأسه ليبيعوه من سلافة بنت سعد بن شهيد، وهي أم مسافع وجلاّس ابني طلحة العبدي، وكان عاصم قتلهما يوم أحد وكانت نذرت لئن قدرت على رأس عاصم لتشربن الخمر في قحفه فمنعته الدَّبر. ابن حجر، فتح (384/7).

222) جماعة النحل، وقيل: ذكور النحل، أو الزنابير. القاموس، دبر، وابن حجر، فتح (384/7).

223) انظر البخاري، الصحيح (41/5) ، السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة ، ص 233

224) الغزالي، فقه السيرة ، 276 .

فإن أراد الأخذ بالرخصة فله أن يستأمن، قال الحسن البصري: لا بأس بذلك، وقال سفيان الثوري: أكره ذلك. الوفاء للمشركين بالعهد، والتورع عن قتل أولادهم، والتلطف بمن أريد قتله.

الدعاء على المشركين بالتعميم، وإنشاء الشعر وإنشاده عند القتل.

دلالة على قوة يقين خبيب وشدته في دينه.

أن الله يبتلي عبده المسلم بما شاء كما سبق في علمه ليثيبه، ولو شاء ربك ما فعلوه.

استجابة دعاء المسلم وإكرامه حيّا وميتاً، وغير ذلك من الفوائد مما يظهر بالتأمل، وإنما استجاب الله له في حماية لحمه من المشركين، ولم يمنعهم من قتله لما أراد من إكرامه بالشهادة، ومن كرامته حمايته من هتك حرمته بقطع لحمه(225).

وفي الحادثة : إثبات كرامة الأولياء. وما أكرم الله به خبيبا من إطعامه له القطف من العنب في زمان وحين لا يوجد منه بمكة حبة ولا ثمرة، وهذه المكرمة شبيهة بما قصّ الله تعالى من شأن مريم:وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۚ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ [سورة آل عمران: الآية 37]، وإبلاغ الله سلامه إلى رسوله، وهما دلالتان واضحتان مثلهما جائز في إبان النبوة(226).

225) ابن حجر، فتح (384/7-385).

226) انظر أبا نعيم، دلائل ، 511/2-512

وفيها أيضا مشروعية الصلاة عند القتل، قال في سياق رواية الصحيح: "فكان أول من سن الركعتين عند القتل"(227)

قال السهيلي: "وإنما صار فعل خبيب سُنة حسنة، والسنة إنما هي أقوال من النبي ص وأفعال، وإقرار؛ لأنه فعلها في حياته ففاستحسن ذلك من فعله، واستحسنه المعلمون مع أن الصلاة خير ما ختم به عمل العبد"(228).

قال الحلبي: "وكان ابن سيرين رحمه الله إذا سئل عن الركعتين قبل القتل قال: صلاهما خبيب رضي الله تعالى عنه وحجر، وهما فاضلان، ويعني بحجر: حجر بن عدي رضي الله تعالى عنه"(229).

وقال: "واستدل أئمتنا بقصة خبيب هذه على أنه يستحب لمن أشرف على الموت أن يتعهد نفسه بتقليم أظفاره وأخذ شعر شاربه وإبطه وعانته، ولعل ذلك كان بلغ النبي ص وأقرّه"(230).

---

227) البخاري، الصحيح (41/5).

228) السهيلي، الروض ، 192/6 .

229) الحلبي، سيرة ، 162/3 .

230) الحلبي، سيرة ، 160/3 ، السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة ، ص 236

حب النبي - ص- عند الصحابة:

لقد كشفت هذه الحادثة عن مدي حب الصحابةيللحبيبمحمد ف ، و يظهر هذا الحب في الحوار الهادئ بين أبي سفيان وبين زيد بن الدثنة، إذ قال له أبو سفيان: أتحب أن محمداً الآن عندنا مكانك تضرب عنقه، وأنك في أهلك؟ فقال زيد: والله ماأحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة ، وإني جالس في أهلي(231).

وهذا الحب من الإيمان فقد قال - ف- ثلاثة من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان، من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لايحبه إلا لله وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار(232).

231) انظر ابن هشام، سيرة ، 172/3 ، الواقدي، مغازي ،362/2

232) البخاري، كتاب الايمان (72/1) رقم 21.

سريّة بئر معونة (233):

استمرارا لمنهجية نشر الإسلام ورسالته، ورغم ما أصاب الدعوة في صميم عملها بفقدان عدد من خيرة فرسانها في الرجيع، فقد واصل رسول الله صبث الدعاة ونشر الدعوة إلى الله صي كل مكان في الجزيرة العربية، حيثما وجد بصيصًا من الأمل لقبولها وانتشارها، "إذ لا بدَّ من تبليغ دعوة الإسلام مهما غلت التضحيات"(234)؛ ففي الشهر نفسه الذي أرسل فيه الرسول ص سرّية الرجيع أرسل فسريّة أخرى إلى بئر معونة (235)،وذلك أن أبا براء عامر بن مالك المعروف بملاعب الأسنّة قدم إلى المدينة، ودعاه النبي ص إلى الإسلام، فلم يسلم ولم يبعد ووعد بإجارة وفد من الدعاة يرسلهم النبي ص لدعوة الأعراب من أهل نجد (236).

233) بئر معونة: ماء لبني عامر بن صعصعة، وهي بين ديار بني عامر، وحرة بني سليم، وهي إلى الحرة أقرب، وهي بلحف أبلى، وأبلى سلسلة جبلية سوداء تقع غرب المهد إلى الشمال، وتتصل غربا بحرة الحجاز العظيمة، وهي اليوم ديار مطير، ولم تعد سليم تقربها.انظر ابن هشام، السيرة ، 184/3 ، والبكري، معجم ، 1245/4 .

234) أكرم العمري، المجتمع المدني ، ص89.

235) ابن هشام، السيرة 3/ 174، الواقدي، المغازي 1/ 346، ابن سعد، الطبقات 2/ 51.

236) انظر ابن حجر، فتح (386/7)، والنووي على مسلم (46/13).

وقد ثبت في الصحيح أن الرسول ص أرسل إلى نجد سبعين من خيار الصحابة- ا- ممن عرفوا بالقرّاء لمثابرتهم على التحصيل العلمي حيث كانوا "يقرأون القرآن، ويتدارسون بالليل ويتعلمون، وكانوا بالنهار يجيئون بالماء فيضعونه في المسجد، ويحتطبون فيبيعونه ويشترون به الطعام لأهل الصفة والفقراء(237)، وقد أمّر عليهم المنذر بن عمرو الخزرجي (238).

وتحركت السرية حتى إذا ما وصلوا بئر معونة -وهي منطقة تماس حدودية بين أراضي قبيلة بني عامر وحرة بني سليم- عسكروا بإزائها، ومن هناك بعثوا حرام بن ملحان ا أحد أفراد البعثة إلى الأعراب في مهمة استطلاعية وتمهيدية لمهمة البعثة الأساسية، وذلك بمبادرة منه تطوعية إذ قال لهم: "أتقدمكم فإن أمّنوني حتى أبلغهم عن رسول الله ص، وإلاَّ كنتم مني قريبا"(239).

237) البخاري- الصحيح 5/ 41- 44 (حديث 4090)، انظر النووي على مسلم (47/13)، وانظر ابن حجر، فتح (385/7). وجعلهم ابن إسحاق أربعين صحابيّا.

238) خليفة بن خياط، تاريخ 2/ 174، الطبري، تاريخ 2/ 30- 1، وانظر: ابن هشام، السيرة 3/ 174.

وفي الوقت الذي يذكر البخاري سببا آخر لإرسالهم وهو أن الرسول صقد أرسلهم مددا لبطون من بني سليم (الفتح- الحديث 4090)، ابن سعد، الطبقات، 3/ 53 بإسناد صحيح، فإن مسلم يذكر في صحيحه (3/ 1511- حديث 677) بأن سبب إرسالهم إنما هو للدعوة وتعليم الأعراب القرآن والسنّة بناء على طلبهم.

239) ابن حجر، فتح (19/6)، ورواية عند أحمد، البنا، الفتح الرباني (64/21).

ولكن الأعراب كانوا أشدَّ كفرا ونفاقا وغدرا، فتنفيذا لخطة التآمر الدنيئة التي دبروها مع قائدهم عامر بن الطفيل العامري، وبينما حرام "يحدثهم عن النبي ص إذ أومأوا إلى رجل منهم فطعنه فأنفذه"فصاح: «اللّه أكبر فزت ورب الكعبة» "(240).

ذلك المشهد العظيم والذي لم يعهده المشركون من قبل، جعل قاتله يسلم(241) متعجبا من رَدَّة الفعل التي لم يك أحد من الحاضرين يتوقعها من رجل يلفظ أنفاسه الأخيرة(242). لم يكتف الأعراب بذلك بل تبعوا أثره حتى وجدوا أصحابه فأحاطوا بهم من كل جانب ودافع أصحاب رسول الله صعن عقيدتهم السمحة التي جاءوا لنشرها بين من غدروا بهم، ولكن هول المفاجأة وكثرة الأعراب المستعدين لخيانتهم المدبّرة سلفا لم تتح لهم الفرصة في قتال متكافىء،

240) انظر ابن حجر، فتح (386/7).

241) جاء في رواية أحمد عن أنس: "فلما كان بعد ذلك، إذا أبو طلحة يقول لي: هل لك في قاتل حرام. قلت له: ما له فعل الله به وفعل. قال: مهلاً فإنه قد أسلم". أنظر : الفتح الرباني (65/21) ، ابن حجر، فتح (388/7).

242) السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة ، ص 240

فسقطوا شهداء على أرض بئر معونة إلاّ رجلا أو رجلين منهم(243)، حيث سطروا بدمائهم الزكية ملحمة من أروع الملاحم الجهادية في تاريخ الإسلام بعد أن كسبوا ي(244).فهذا الروح الأمين ؛ يخبر "النبي ص أنهم قد لقوا ربهم فرضي عنهم وأرضاهم"(245)، فقال رسول الله - ص- لأصحابه: إن إخوانكم قد قتلوا وإنهم قالوا: اللهم بلغ عنا نبينا أنا قد لقيناك، فرضينا عنك ورضيت عنا (246).

فيا لها من منزلة عظيمة تتوق إليها نفس كل مسلم، وكان رسولالله صقد أخبر أصحابه بمصيرهم، ويصف أنس ا شدّة تأثر رسولالله صلمصابهم: "ما رأيت رسول الله صوجد على شيء قط ما وجد على أصحاب سرية بئر معونة، أصحاب سرية المنذر بن عمرو، فمكث شهرا يدعو على الذين أصابوهم في قنوت صلاة الغداة"(247) (248).

243) ذكر أهل المغازي اسميهما، فعند ابن إسحاق: أنه عمرو بن أمية، ورجل من الأنصار من بني عمرو بن عوف. وقال ابن هشام: هو المنذر بن محمد بن عقبة بن أحيحة بن الجلاح، وأشارت الروايات العديدة إلى أن كعب بن زيد بن النجار ترك في أرض المعركة وبه جراحات كثيرة وبه رمق فعاش وشفي وعاش حتى استشهد في غزوة الخندق. أنظر : البخاري- الصحيح (الأحاديث 4088- 4096)، مسلم- الصحيح 3/ 1511 (حديث 677)، أحمد- المسند: الفتح الرباني 12/ 63- 65، الهيثمي- مجمع الزوائد 6/ 126، ابن سعد- 2/ 51- 54، ابن هشام- السيرة 3/ 260- 267،المغازي ، 348/2، ابن حجر، فتح (19/6).

244) السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة ، ص 240

245) ابن حجر، فتح (19/6).

246) مسلم في الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد رقم 677.

247) من رواية عبد الرزاق بسند صحيح عن أنس، المصنف (384/5).وأخرج البخاري نحوه عن أنس من طريق أبي النعمان. ابن حجر، فتح (272/6). ومسلم أيضا. انظر النووي على مسلم (179/5).

248) الخبر صحيح متفق عليه، فقد أخرجه البخاري في صحيحه في مواضع عدة، انظر ابن حجر، فتح (490/2، 19/6-31-272، 386/7-388-389).وأخرجه مسلم في صحيح. انظر صحيح مسلم بشرح النووي (179/5-178، 47/13).

وقد استجاب المولي عز وجل لدعاء نبيه **ص** فأصيب عامر بن الطفيل بمرض الطاعون (ارتفاع درجة الحرارة وتضخم العقد الليمفية في منطقة الإرب وتحت الإبط وكذا تضخم الطحال) وظل حبيساً في بيت امرأة من قومه حتى مات .انظر: محمد الصوياني، السيرة النبوية ، ص130 ، علي الصلابي ، السيرة النبوية ، 193/2

ومن الطبعي أن يتأثر رسول الله صلمصابهم، فقد كانوا من خيرة أصحابه، ومن فرسان الدعوة المعدودين، وقد كان فقدهم في وقت كانت دعوة الإسلام بحاجة ماسّة لخدماتهم، كما أن الطريقة التي تم فيها قتلهم تعصر القلب ألمًا وحزنًا عليهم، فهي طريقة شائنة لم تتح لهم الفرصة في قتال فروسي مشرف.

"إن هذه النازلة ملأت قلوب المسلمين غيظا، وهم لم يضيقوا بخسائرهم فحسب، بل الذي أحرج مشاعرهم في هذه الحادثة أنها كشفت عمّا تخبئه الوثنية في ضميرها من غلّ كامن على الإسلام وأهله، غلٍّ عاصف بكل مبادىء الشرف والوفاء"(249) التي اشتهر بها العرب في الجاهلية وزادها الإسلام قوة وعزًّا، لكن حقد الوثنية الدفين على الإسلام ورجالاته طغى على هذه المبادىء في قلوب أصحابها فأعمى بصائرهم وبصيرتهم(250).وقد فتك عمرو بن أميّة وهو في طريقه إلى المدينة برجلين من بني كلاب وهو يرى أنه قد أصاب ثأر أصحابه، ولكن تبين أن معهما عهدا من النبي ص وهو لم يعلم به مما دفع الرسول ص إلى الالتزام بدفع ديتهما فقال : (لقد قتلت قتيلين لأدِيَنَّهما) ، وانشغل بجمع ديتهما من المسلمين ومن حلفائهم اليهود (251) ، وهذا الذي صار سبباً لغزوة بني النضير فيما بعد .

---

249) الغزالي، فقه السيرة ، ص278 .

250) السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة ، ص 243

251) ابن هشام ، السيرة النبوية ، 2/183-188 ، ابن القيم ، زاد المعاد ، 2/109

إجلاء بني النضير

كان بنو النضير أقوى القبائل اليهودية بالمدينة، وكانت حصونهم غاية في المناعة والقوة وكانوا يعتدون بها ويعتقدون أنها قادرة عل حمايتهم، وكان العرب من حولهم يرون أنها أمنع من أن تقتحم، كما كانوا يملكون أفضل الأراضي الزراعية وأفضل النخيل، وكان زعماؤهم قد أظهروا العداوة للنبي –ص - من يوم قدومه إلى المدينة، وظهر الحسد والبغضاء والإصرار على العداوة منهم.

فلما انتصر المسلمون يوم بدر انطلق شاعرهم كعب بن الأشرف يرسل الأشعار في هجاء المسلمين والتحريض عليهم، وذهب إلى مكة يرثي أصحاب القليب -قتلى قريش- ويحرض قريشًا على المسلمين، حتى فاضت نفوس المسلمين بالغيظ منه والحقد عليه؛ لذلك أمر النبي -ص- بقتله. ثم إن زعيم بني النضير سلام بن مشكم آوى أبا سفيان في غزوة السويق وأطلعه على أسرار المسلمين(252)، فكأن الخيانة في بني النضير قد ولدت مبكرة حتى إذا ما كانت معركة أحد وهزم فيها المسلمون، وبدأت القبائل العربية تتحرش بهم، حتى استدرجت عددًا منهم، وقتلتهم في الرجيع وبئر معونة ، بدأ يهود بني النضير يدبرون مؤامرة خطيرة للتخلص من النبي -ص-

252) تاريخ الطبري ، 284/2، فتح الباري ، 332/7

والقضاء على الوضع القائم في يثرب كله، مستعينين في ذلك بتلك الجماعة المنافقة بزعامة عبد الله بن أبي، وقد بدأ النبي -ص- يحس بهذا الموقف في المدينة، لذلك فكر تفكيراَ سياسيّا بعيدًا عن مرامي الرأي، فرأى ألا شيء خير من أن يستدرجهم ليكشف عن نياتهم(253).

حين قتل عامر بن الطفيل زعيم بني عامر رجال النبي -ص- الذين ذهبوا إلى منطقة نجد للدعوة إلى الإسلام في بئر معونة -مكان بين حرة بني سليم وبلاد بني عامر شرقي المدينة- نجا منهم رجل هو عمرو بن أمية الضمري الذي قابل في طريقه رجلين من بني عامر فقتلهما ثأراً بأصحابه، ولم يعلم أن معهما كتاب عهد من رسول الله -ص- واقتضاه أن يدفع ديتهما. وذهب النبي -ص- إلى منازل بني النضير- وكانوا حلفاء لبني عامر- في عشرة من كبار أصحابه، وطلب إليهم أن يعاونوا في دفع دية القتيلين، وأظهر اليهود الغبطة لقدومه إليهم، والاستعداد للتعاون، ولكن حين تبسط معهم وجلس إلى جوار بيت من بيوتهم، ائتمروا بينهم أن يصعد أحدهم إلى أعلى الدار فيلقي على النبي -ص- صخرة تقتله، وأحس النبي ص بدقة ملاحظته روح التآمر فيهم، وجاءه الخبر من السماء بما عزموا عليه من شر فنهض وانطلق بسرعة إلى المدينة، ثم تبعه أصحابه بعد قليل.وقد أدرك اليهود أن تآمرهم قد اكتشف(254).

253) أحمد إبراهيم الشريف ، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد للرسول ، ص 388
254) الواقدي ، 365/1

وقد سجل القرآن الكريم ما كان من مكر يهود بني النضير فقال تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ [سورة المائدة: الآية 11] فأخرج الطبري عن أبي زياد قال: جاء رسول الله - ص- بني النضير ليستعينهم في عقل أصحابه ومعه أبو بكر وعمر وعلي فقال: أعينوني في عقل أصابني، فقالوا: نعم يا أبا القاسم قد آن لك أن تأتينا وتسألنا حاجة، اجلس حتى نطعمك ونعطيك الذي تسألنا، فجلس رسول الله - ص- وأصحابه ينتظرون وجاء رأس القوم، وهو الذي قال لرسول الله - ص- ماقال، فقال لأصحابه: لاترون أقرب منه الآن، اطرحوا عليه حجارة فاقتلوه، ولاترون شراً أبداً. فجاءوا إلى رحى لهم عظيمة ليطرحوها عليه، فأمسك الله عنها أيديهم حتى جاء جبريل ؛ فأقامه من ثم فأنزل الله عزوجل:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ [سورة المائدة: الآية 11]فأخبر الله نبيه - ص- ما أرادوا به(255).

255) انظر: تفسير الطبري ، 6/144-145

وما كان النبي - ص - يصل إلى المدينة ويجتمع بأصحابه حتى أرسل اليهود أحد رجاله وهو محمد بن مسلمة الأوسي يقول لهم: "اخرجوا من بلادي. لقد نقضتم العهد الذي جعلت بينكم بما هممتم به من الغدر بي، لقد أجلتكم عشرًا فمن رؤي بعد ذلك ضربت عنقه" (256)وأبلست بنو النضير ولم يجدوا جواباً يردون به سوى أن قالوا لمحمد بن مسلمة: يامحمد، ماكنا نظن أن يجيئنا بهذا رجل من الأوس فقال محمد: تغيرت القلوب، ومحا الإسلام العهود فقالوا: نتحمل فمكثوا أياماً يعدون العدة للرحيل(257).لكن عبد الله بن أبي -رأس المنافقين وكبيرهم- أرسل إليهم يقول: "اثبتوا وتمنعوا فإنا لن نسلمكم، وإن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أخرجتم خرجنا معكم(258)، ولاتخرجوا فإن معي من العرب وممن انضوى إلى قومي ألفين، فأقيموا فهم يدخلون معكم حصونكم، ويموتون عن آخرهم قبل أن يصلوا إليكم(259).

فعادت لليهود بعض ثقتهم وتشجع كبيرهم (حيي بن أخطب) وأرسل إلى النبي - ص- جدي بن أخطب يقول له: إنا لن نريم - اي لن نبرح - دارنا فاصنع مابدا لك، فكبر رسول الله - ص- وكبر المسلمون معه، وقال: حاربت يهود(260).

---

256) طبقات بن سعد الكبرى ، 57/2، مغازي الواقدي ، 363/1-370

257) تاريخ الطبري ، 552/2

258) سيرة ابن هشام ،212/3

259) تاريخ الطبري ، 553/2

260) ابن كثير ، السيرة النبوية ، 146/3

وهنا نقف على أبواب مؤامرة خطيرة يدبرها اليهود والمنافقون في المدينة.

ها هم بنو النضير يأتمرون بالنبي ص ليقتلوه غدرًا، فلما انكشفت خطتهم أعلن المنافقون عن المؤامرة كاملة، فإذا جبهة متكاملة تعلن خروجها، وتستعد للحرب، وتعلن في صراحة أن لديها القوة الكافية من عشائرها ومن غيرها من العرب الآخرين، وأن لديها الحصون والقلاع تحتمي بها، وأنها على استعداد لخوض غمار الحرب حتى الفناء.

إذن فقد كان تقدير النبي - ص - صادقًا وكانت شكوكه في محلها، أن المدينة مهددة بالحرب الأهلية يثيرها اليهود والمنافقون ومن ينضم إليهم من الأعراب القريبين، وإذن فهو الخطر الداهم الذي لو سكت عليه النبي - ص - لكان في ذلك القضاء على دولته، فقد أصبح الأعداء يحيطون بها في الداخل والخارج، ولكي يتغلب على هذا الموقف فلا بد من العمل السريع الحاسم ولا بد من شجاعة وشدة يتذرع بها المسلمون (261).

فقد أخذت اليهود في التجهز للحرب، فرمت حصونها ونقلت إليها الحجارة وشحنتها بالمؤن والذخيرة، واطمأنت إلى قوتها وإلى القوة الخارجية التي يعدها عبد الله بن أبي.

261) مكة والمدينة في الجاهلية وعهد للرسول ، ص 389

وأسرع النبي - ص - فحاصرهم، واشتبك معهم في القتال عشرين يومًا أظهر فيها اليهود كثيراَ من البسالة، واستماتوا في الدفاع عن حصونهم ودورهم، ولم ينسحبوا من دار إلا بعد أن ييأسوا من الدفاع عنها فيخربوها. وطال حصار الحصون حتى ظن المسلمون استحالة إخراجهم منها، فأمر النبي - ص - بقطع نخيلهم وتحريقها حتى ييئسهم من فائدة المقاومة أو يضطرهم للخروج لقتال المسلمين في معركة مكشوفة.

أما عبد الله بن أبي ومن معه، فقد استطاع النبي - ص - أن يحول بينهم وبين الاتصال باليهود، فقد أحكم الحصار، فلم يجرؤ عبد الله على التقدم لتنفيذ وعده لليهود، وأذهلته وأصحابه القوة التي واجه بها المسلمون الموقف،

وملأ الرعب نفوسهم حينما رأوا النبي - ص - يأخذ اليهود بالشدة فيحرق بيوتهم ويقطع نخيلهم وينكل بهم؛ لذلك جبنوا عن أن يتقدموا للمشاركة في القتال، بعد أن حيل بينهم وبين الوصول إلى حصون اليهود، ويئس اليهود من عونهم، فأرسلوا إلى النبي - ص- يلتمسون منه أن يؤمنهم حتى يخرجوا من ديارهم

فوافقهم النبي - ص- على ذلك وقال لهم:(اخرجوا منها و لكم دماؤكم وماحملت الإبل إلا الحلقة- وهي الدروع والسلاح - فرضوا بذلك ، وحملوا معهم كميات كبيرة من الذهب والفضة حتى أن سلام بن أبي الحقيق وحده حمل جلد ثور مملوء ذهباً وفضة وكان يقول هذا الذي أعددناه لرفع الأرض وخفضها وإن كنا تركنا نخلا ففي خيبر النخل.وحملوا أمتعتهم على ستمائة بعير،

وخرجوا ومعهم الدفوف والمزامير والقيان يعزفن من خلفهم حتى لايشمت بهم المسلمون، فقصد بعضهم خيبر وسار آخرون إلى أذرعات الشام (262).وارتحل اليهود فمنهم من نزل بخيبر ومنهم من ارتحل إلى الشام وتركوا للمسلمين وراءهم مغانم كثيرة من غلال وسلاح، ولكن الأرض التي تركوها كانت أفضل ما غنم المسلمون وأنفع، فقد جعلها النبي -ص- للمهاجرين دون الأنصار الذين لم يجدوا في صدورهم حرجًا وآثروا بها المهاجرين، وبذلك استغنى المهاجرون عن معونة الأنصار فتحسنت الحالة الاقتصادية عند الطرفين (263).

أما المنافقون، فقد ضعف أمرهم بعد أن انكشف أمرهم ودمغوا بالجبن والعار، ولم يعاقبهم النبي -ص- ولكنه لم يعد يفكر في أمرهم كثيراً. وفي شأن بني النضير وتآمر المنافقين معهم نزلت سورة كاملة من سور القرآن هي سورة الحشر.

وبخروج بني النضير، ضعف شأن اليهود بالمدينة، ولكن بقيت لهم جولة أخرى يدبرها بنو النضير بتجميع الأحزاب (264).

---

262) السيرة الحلبية ، 566/2

263) ابن هشام ، السيرة النبوية ، 212/3.

264) أنظر : مغازي الواقدي 282- 290 ، طبقات ابن سعد 3/ 98- 100 ، أحمد الشريف ، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد للرسول ، ص 390

غزوة ذات الرقاع (265):

بعد أُحد اشتد نشاط القبائل ضد المدينة واتسعت دائرته، وتنوعت وسائله فقد تجرأت القبائل على حرب المدينة والنيل من المسلمين بعد هزيمتهم في أحد أمام قريش، وكانت بدر قد أوجدت العرب في قلوبهم، لكنهم بعد أحد بدءوا يستعيدون شجاعتهم ويكيدون للمدينة ويستعدون لضربها.

وكان أول ما بلغ النبي -ص- بعد شهرين من أحد أن طليحة وسلمة بن خويلد وكانا على رأس بني أسد، يحرضان قومهما ومن أطاعهما يريدان مهاجمة المدينة؛ ليصيبوا من أطرافها؛ وليغنموا من نَعم المسلمين التي ترعى الزروع المحيطة بمدينتهم، وإنما شجعهم على ذلك اعتقادهم أن المسلمين لا يزالون مضعضعين من أثر أحد،

265) سميت هذه الغزوة بذات الرقاع لأنهم كانوا يربطون على أرجلهم من الخرق والرقاع اتقاء الحر، وقيل لأنهم رقعوا راياتهم، وقيل لشجرة كانت اسمها ذات الرقاع، وقيل لأن المسلمين نزلوا في أرض كان فيها بقع بيض وسود مختلفة، فسميت لذلك والصحيح: لأنهم كانوا يربطون على أرجلهم من الخرق، فقد روى الشيخان بسنديهما عن أبي موسى الأشعري قال: خرجنا مع النبي - ص- في غزاة ونحن ستة نفر بيننا بعير نتعقبه فنقبت أقدامنا ونقبت قدماي وسقطت أظفاري وكنا نلف على أرجلنا الخرق فسميت غزوة ذات الرقاع لما كنا نعصب بالخرق على أرجلنا.أنظر : صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة ذات الرقاع، 145/5

فما كاد هذا الخبر يبلغ مسامع النبي -ص- حتى عقد لأحدرجاله -سلمة بن عبد الأسد- لواء سرية تبلغ عدتها مائة وخمسون رجلًا منهم كثير من كبار المسلمين وشجعانهم فباغتوا الأعداء على حين غفلة فأوقعوا بهم هزيمة سريعة ألجأتهم إلى الفرار فطاردوهم وظفروا بما معهم غنيمة للمسلمين(266).

وكذلك اتصل بالنبي -ص- بعد ذلك أن خالد بن سفيان بن نبيح اللحياني الهذلي، زعيم لحيان من هذيل مقيم بنخلة أو بعرنة -من أرض هذيل- وأنه يجمع الجموع ليغزوه. فدعا النبي -ص- إليه أحد رجاله -عبد الله بن أنيس- فسار عبد الله حتى التقى بخالد، واستطاع أن يوهمه بأنه سمع تجمعه لمحمد، فجاء ينضم إليه. فلما تأكد من صحة ما علم المسلمون غافله حتى إذا وجد منهم غرة قتله. وعاد إلى المدينة فأخبر النبي -ص- وهدأت بنو لحيان بعد موت زعيمها زمنًا، عادت بعده تفكر في الثأر عن

266) الواقدي، 264- 268.

طريق الحيلة والغدر.

ثم دبروا أمر الثأر عن طريق رهط من عَضْل والقارة من بني الهون ابن خزيمة فقدموا على النبي -ص- يقولون له: إن فينا إسلامًا فابعث معنا نفرَامن أصحابك يعلموننا شرائعه ويقرئوننا القرآن. فبعث ستة من كبار أصحابه خرجوا مع الرهط، حتى إذا بلغوا ماء لهذيل بناحية تُدعى الرجيع، غدروا بهم واستصرخوا هذيلًا عليهم، ولم يرع هؤلاء الرجال الستة وهم في رحالهم إلا الرجال وبأيديهم السيوف قد غشوهم، ودافع المسلمون عن أنفسهم حتى قتل منهم ثلاثة واستأسر الثلاثة الآخرون. فأما أحدهم فتخلص من قيده ودافع عن نفسه حتى قتل. وأما الآخران فقد باعتهما هذيل إلى قريش غدرًا، وثأرًا بمن قتل من رجالها يوم بدر(267).

ولم يكن حزن المسلمين قد خفَّ على من قتل من أصحابهم يوم الرجيع ولم تكن أشعار حسان بن ثابت يرسلها في رثاء هؤلاء الرجال قد خفتت أنغامها الحزينة- حين فوجئ المسلمون بحادث هو أنكى عليهم من غدر هذيل، وأشد ألَمًا للمسلمين وإثارة لعواطفهم، ذلك هو غدر بني عامر بوفد آخر من المسلمين بلغت عدته أربعين رجلًا، وقتلهم في بئر معونة إلا رجلًا منهم هو عمرو بن أمية الضمري أسره عامر بن الطفيل ثم خلى عنه حين علم أنه من كنانة (268).

267) ابن هشام، 3/ 160- 183. ابن سعد، 3/ 96- 98.
268) ابن هشام، 3/ 183، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد للرسول ، ص 399

كان لهذين الحادثين وقع أليم في نفس النبي -ص- دعاه إلى زيادة الحيطة والحذر في معاملة القبائل، واتخاذ الشدة معها، إذ إن مثل هذه الأمور لو تكررت استخفت العرب بشأن المسلمين وتجرأت القبائل عليهم، وعند ذلك يرفع النفاق رأسه في المدينة، ويجد اليهود لهم مجالًا لإيقاع الفتنة والائتمار بالنبي ص وبالمسلمين، وربما جرّ ذلك إلى تكتل أعدائهم عليهم في الخارج، نتيجة لروح الاستخفاف التي تثيرها أمثال هذه الجرأة على المسلمين، وقد كاد هذا يتم فعلًا، فقد تآمر المنافقون واليهود في المدينة على حياة الرسول ص وإثارة الحرب الداخلية في المدينة مما أدى إلى إجلاء بني النضير كما قدمنا.

فما أن وصل النبي -ص- إلى المدينة بعد إجلاء بني النضير ، حتى حملت إليه الاستخبارات الإسلامية أن جماعة من غطفان يجمعون له يريدون حربه فخرج بنفسه على رأس أربعمائة من أصحابه إلى محالهم بمكان يقال له: ذات الرقاع (269)ففر الأعراب من وجهه، فاستاق من وجد من أموالهم ونسائهم وعادإلى المدينة(270).

وفي هذه الغزوة شرعت صلاة الخوف وبين القرآن الكريم صفة الصلاة ساعة مواجهة العدو

269) وهو موضع في وادي القرى على طريق تبوك
270) أنظر : طبقات ابن سعد ، 3/ 102، 103.

وهي قال تعالى:وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا [سورة النساء: الآية 102] فقد صلى المسلمون صلاة الخوف، وصفة هذه الصلاة أن طائفة صفت معه، وطائفة في وجه العدو. فصلى بالتي معه ركعة ثم ثبت قائماً، وأتموا لأنفسهم، ثم انصرفوا فصفوا وجاه العدو، وجاءت الطائفة الأخرى فصلى بهم الركعة التي بقيت في صلاته، ثم ثبت جالساً وأتموا لأنفسهم ثم سلم بهم(271).

وفي هذه الغزوة وقعت قصة الرجل الذي اخترط سيفه ف وهو نائم تحت الشجرة (واسم الأعرابي: غورث ابن الحارث)،

271) مسلم (842).

وقد جاء في صحيح البخاري عن جابر عن عبد الله اماقال: غزونا مع رسول اللّه ص غزوة نجد، فلمّا أدركته القائلة (272)

وهو في واد كثير العضاه (273) فنزل تحت شجرة واستظلّ بها وعلّق سيفه فتفرّق النـّاس في الشّجر يستظلّون. وبينا نحن كذلك إذ دعانا رسول الله ص فجئنا. فإذا أعرابيّ قاعد بين يديه، فقال: «إنّ هذا أتاني وأنا نائم، فاخترط سيفي (274)، فاستيقظت وهو قائم على رأسي مخترط سيفي صلتا (275)، قال: ما يمنعك منّي؟ قلت: اللّه، فشامه (276) ثمّ قعد، فهو هذا. قال: ولم يعاقبه رسول اللّه ص" (277).

وقد عاهد غورث رسول الله - ص- أن لايقاتله ولايكون مع قوم يقاتلونه فخلى سبيله، فجاء إلى أصحابه فقال: (جئتكم من عند خير الناس)(278)

272) القائلة: نصف النهار، وفي الصحاح: الظهيرة.
273) العضاهة: بالكسر أعظم الشجر أو كل ذات شوك، والجمع عضاه وعضون.
274) اخترط سيفي: استله.
275) الصّلت من السيوف: الصقيل الماضي.
276) شامه: أي أغمده.
277) البخاري الفتح 7 (4139) واللفظ له. ومسلم (843).
278) رواه الامام أحمد ، محمد بن يوسف الصالحي الشامي ، سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد ، 183/5

غزوة بدر الموعد:

بعد أن كسر المسلمون شوكة القبائل العربية الضاربة علي تخوم المدينةوأعاد الهيبة في قلوبهم ، وأمن شرهم ومكرهم وخيانتهم ، شرع الحبيب محمد ص في التجهز لملاقاة أبو سفيان في الموعد الذي كان ضربه ، وكان أبو سفيان يوم أحد نادى: موعدنا وإياكم بدر في عامنا المستقبل. فأمر رسول الله ص بعض أصحابه أن يجيبه بنعم؛ فأقام رسول الله ص منصرفه من ذات الرقاع ثم خرج على رأس جيش من أصحابه قوامه ألف وخمسمائة مقاتل بينهم عشرة من الخيّالة وذلك في ذي القعدة سنة 4 هـ وحمل لواء الجيش علي بن أبي طالب- ا- فوصلوا بدرا فأقاموا فيها ثمانية أيام بانتظار وصول قوات المشركين من قريش بقيادة أبي سفيان بحسب الموعد بين الطرفين، غير أن أحدا من المشركين لم يصل إلى بدر، وكان أبو سفيان قد جمّع قوات قريش وحلفائها التي تألفت من ألفي مقاتل معهم خمسون فرسا، فلما وصلوا إلى مر الظهران، نزلوا على مياه مجنّة على بعد أربعين ميلا من مكة،

ثم عاد بهم أبو سفيان إلى مكة بحجة أن ذلك العام كان عام جدب ، بعد أن خطب فيهم وقال: يامعشر قريش إنه لايصلحكم إلا عام خصيب ترعون فيه الشجر، وتشربون فيه اللبن، وإن عامكم هذا عام جدب وإني راجع فارجعوا(279)

وأقبل مخشي بن عمرو الضمري وهو الذي وادع رسول الله - ص- على بني ضمرة في غزوة ودان، فالتقى برسول الله - ص- في بدر وقال: يامحمد أجئت للقاء قريش على هذا الماء؟ قال نعم، يا أخا بني ضمرة، وإن شئت مع ذلك رددنا إليك ماكان بيننا وبينك، ثم جالدناك حتى يحكم الله بيننا وبينك، قال. لا والله يامحمد ص مالنا بذلك منك من حاجة(280).

وكان لإخلاف قريش موعدهم مع الرسول ص والمسلمين صدى واسع بين القبائل العربية، وأثر كبير في الارتفاع بمكانة المسلمين واستعادتهم لهيبتهم التي كانت قد انتكست بعد معركة أحد (281).

279) ابن هشام- السيرة، 3/ 292، الواقدي، مغازي، 1/ 384، ابن سعد، الطبقات، 2/ 59، ابن القيم، زاد المعاد، 2/ 120، ابن كثير، البداية والنهاية، 4/ 87.

280) ابن هشام، السيرة، 3/ 292

281) انظر: موسوعة نظرة النعيم ، 318،319/1 .

غزوة دومة الجندل :

أتاحت التحركات العسكرية التي قام بها المسلمون التي أعقبت معركة أحد للدولة الإسلامية في المدينة فرصة الاستقرار، كما أن إخراج بني النضير، واستيلاء المسلمين على أراضيهم ونخيلهم، أدى إلى تحسن حالة المسلمين الاقتصاديةفي المدينة؛ فقد وزعت الأراضي على المهاجرين فاستقلوا بأمر معاشهم واستغنوا عن معونة الأنصار فتحسنت حالة الطرفين جميعًا، كما ضعف أمر النفاق، وخفت قوة المعارضة الداخلية في المدينة، وكانت الفترة التي تلت خروج بني النضير فترة سكينة وطمأنينة استراح إليها المسلمون. واستطاعوا بعد أن استدار العام أن يخرجوا إلى بدر استجابة لوعد أبي سفيان يوم أحد، لكن قريشًا لم تكن في حالة من القوة تمكنها من الوفاء بوعدها، فلم تذهب إلى بدر واكتفت بأن تتظاهر بالخروج، وترسل تهدد المسلمين. وفي بدر استفاد المسلمون من تجارة الموسم فربحوا، كما جددالنبي -ص- عهوده مع القبائل التي وادعته من قبل، وكان من نتيجة تخلف قريش وخروج المسلمين أن انمحت آثار أحد واستقر سلطان المسلمين في هذه المنطقة وتدعمت هيبتهم، فتفرغ فللتوجه إلى أقصي حدود العرب ، ومهاجمة دومة الجندل ، حتى تصير السيطرة للمسلمين على الموقف، ويعترف بذلك الموالون والمعادون .

واتفقت كتب المغازي والسير على أنها كانت في ربيع الأول على رأس تسعة وأربعين شهرا من الهجرة النبوية (282). ويرجع الواقدي سببها إلى أنه قد بلغ رسول اللّه ص أن بدومة الجندل جمعا كثيرا من الناس وأنهم يظلمون من مرّ بهم من تجار الميرة والمتاع المتنقلين بين المدن- وكان بدومة الجندل سوق عظيم وتجارة رائجة، وأنه قد ضوى إليهم قوم من العرب كثير، وأنهم يريدون التوجه إلى المدينة طمعا في أموالها (283)، فندب رسول اللّه ص الناس وخرج في ألف من المسلمين ومعهم دليل من بني عذرة، وقبل وصولهم دومة الجندل هجموا علي ماشيتهم ورعائهم فأصابوا قسما منها، وهرب من هرب، فبلغ الخبر دومة الجندل، فتهاربوا إذ لم يجد المسلمون أحدا فيها عند وصولهم، فأقام النبي ص بالمسلمين فيها أياما، وبعث بالسرايا من هناك إلى مختلف الأنحاء وكانت ترجع بالإبل فقط، إلّا سريّة محمد بن مسلمة الذي أسر رجلا منهم وعرض عليه الإسلام فأسلم. وعاد الرسول ص بالمسلمين إلى المدينة (284).

282) ابن هشام ، السيرة ، 3/ 297- 298، الواقدي ، المغازي ، 1/ 402، ابن سعد ، الطبقات ،2/ 62.
283) الواقدي ، المغازي ، 1/ 402- 404، ابن سعد ، الطبقات ،2/ 62- 63، وقد أضاف الواقدي سببا آخر وهو أن الرسول ص أراد أن يقترب بتحركاته العسكرية من حدود الشام لكي يفزع الروم، المغازي 1/ 403 ، وانظر ابن هشام ، السيرة ، 3/ 297- 298.
284) الواقدي ، المغازي ،1/ 402- 404، ابن سعد ، الطبقات ،2/ 62- 63.

حقيقة أن الدولة الإسلامية في المدينة وانطلاقاً من شعورها أنها أصبحت دولة لها جميع مقومات الدولة تهتم بجميع النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، لو أغفلت أمر هذه التجمعات والتحركات التي تهدف إلي إيقاع بها، لاستفحل شأنه ، وأدي لضياع وضعها الاقتصادي المميز ، كما أن تحرك المسلمين في المدينة جاء بهدف تأكيد فرض نفوذهم على هذه المنطقة كلها، وإشعار سكانها بأنهم في حماية وتحت مسؤولية دولية قوية قادرة علي توفير الحماية لرعاياها، لذلك فهم يؤمنون لهم الطرق، ويحمون لهم تجارتهم ويحاربون كل إرهاب من شأنه أن يزعجهم أو يعرضهم للخطر وفي إطار الحرب المستمرة مع قريش ، فكان هذا التحرك يهدف إلي حرمان قريش من أي حليف تجاري قد يمدها بما تحتاج من التجارة، وصرف أنظارهم عن هذه المنطقة التجارية الهامة.

كما أن خطة الرسول ص في هذه الغزوة كانت ترمي إلى أهداف عديد فهي غزوة، وحرب استطلاعية تمسح الجزيرة العربية، وتتعرف على مراكز القوى فيها، وهي حرب إعلامية تأتي على أعقاب بدر الموعد، وتستثمر انتصاراتها، وهي حرب عسكرية تريد أن تصد هجوماً محتملاً على المسلمين

حيث ضوى إليها قوم من العرب كثير يريدون أن يدنوا من المدينة، وهي حرب سياسية تريد أن تجهض من تحركات القبائل المحتمل أن تتحرك بعد أنباء غزوة أحد لتقصد المدينة وتستبيحها، (285)كما أن سير الجيش الإسلامي هذه المسافات الطويلة قد كان فيه تدريب له على السير إلى الجهات النائية، وفي أرض لم يعهدوها من قبل ولذلك تعتبر هذه الغزوة فاتحة سير الجيوش الإسلامية للفتوحات العظيمة في بلاد آسيا وإفريقيا فيما بعد(286).

كما يمكن القول أن هذه الغزوة كانت تهدف إلي إعداد العرب وتأهيلهم نفسياً و إزالة الرهبة من نفوسهم من مواجهة الروم بعدما عاشوا طويلا يتملكهم الخوف والهبة من مواجهة الروم ، والتأكيد علي عالمية الإسلام وإنها ليست خاصة بقوم أو دولة أو جنس ، ولابد من إيصالها إلي العالم أجمع (287).

---

285) الغضبان ، التربية القيادية ، 372/3

286) أبو شهبة، السيرة النبوية ، ص252،251.

287) د. عبدالرحمن الشجاع ، دراسات في عهد النبوة، ص144.

غزوة بني المصطلق (288)

لقد كان لهذة الغزوة أهمية كبيرة جدا في تاريخ المسلمين لما تمخض عنها من نتائج ، وما تضمنته من عبر وعظات ، وما صاحبها من وقائع أحدثت البلبلة والاضطراب في المجتمع الإسلامي، وتمخضت عن افتضاح المنافقين، والتشريعات التعزيرية التي أعطت المجتمع الإسلامي صورة خاصة من النبل والكرامة وطهارة النفوس.

وبنو المصطلق هم بطن فرع من خزاعة والمصطلق جدهم وهو جذيمة بن سعد بن عمرو بن ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر ماء السماء(289). واختلفوا في خزاعة(290) فمنهم من قال إنها قبيلة عدنانية ومنهم من ذهب إلى أنها قبيلة قحطانية يمنية والراجح ماذهب إليه أكثر العلماء من أنها قبيلة

---

288) المُصْطَلِق، بضم الميم، وسكون الصاد، وفتح الطاء، وكسر اللام، مفتعل من الصلق وهو رفع الصوت، وهو لقب لرجل اسمه جذيمة بن سعد.
ويقال لها المريسيع أيضًا، بضم الميم وفتح الراء وسكون التحتانيتين، وكسر السين المهملة، وهو ماء لبني خزاعة، مأخوذ من قولهم: رسعت العين إذا دمعت من فساد بها.

289) إبراهيم بن إبراهيم قريبي ، مرويات غزوة بني المصطلق وهي غزوة المريسيع ، ص45

290) خزاعة من التخزع وهو التأخر والمفارقة، وذلك أن خزاعة انخزعت من ولد عمرو بن عامر حين أقبلوا من اليمن يريدون الشام، فنزلت بمر الظهران وأقامت بهما.

قحطانية يمنية(291).

وكانت قبيلة بني المصطلق على طريق قريش التجارية إلى الشام، مما جعلها تتأخر في إعلان إسلامها، حفاظاً على مصالحها. ولكن الرسول ص كان يأمن جانبها بحكم كونها فرعاً من خزاعة التي كانت محل عناية ونصح للرسول ص رغم عدم دخولها في الإسلام ، ويتضح ذلك جلياً في موقف معبد بن أبي معبد الخزاعي في حمراء الأسد ، التي وقعت عقب غزوة أحد مباشرة(292).

291) إبراهيم بن إبراهيم قريبي ، مرويات غزوة بني المصطلق وهي غزوة المريسيع ، ص45

292) لما خرج رسول الله ص بجيشه إلى حمراء الأسد بعد أحد يتبع جيش أبي سفيان خشية أن تسوّل لهم أنفسهم الكرة على المسلمين لاستئصالهم ـ وكان الأمر كما توقّع ف- فلما وصل حمراء الأسد مرّ به معبد بن أبي معبد الخزاعي فقال: "يا محمد والله لقد عز علينا ما أصابك ولوددنا أن الله عافاك مما حدث بك ـ" وكان معبد إذ ذاك مشركاً ولكن خزاعة كانت موضع سر ونصح لرسول الله صبتهامة، مسلمهم ومشركهم فكانوا لا يخفون عنه شيئاً حدث في مكة ـ ثم خرج من عند رسول الله صمتجهاً نحو مكة، فلقي أبا سفيان بن حرب وجماعته بالروحاء- على طريق مكة تبعد عن المدينة بـ 73 كيلومتراً- وقد أجمعوا الرجعة إلى المدينة وقالوا: "أصبنا أشرافهم وقادتهم ثم نرجع قبل أن نستأصلهم، لنكرن على بقيتهم فلنفرغن منهم، وبينما هم كذلك طلع عليهم معبد بن أبي معبد الخزاعي فلما رآه أبو سفيان قال: "ماوراءك يا معبد؟" قال: "محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط، ولا قبل لكم به، وهم يتحرّقون عليكم تحرّقاً قد اجتمع معه من كان تخلّف عنه في يومكم وندموا على ما صنعوا فيهم من الحنق ما لم أر مثله قط".فاندهش أبو سفيان، وقال: "ويحك يا معبد انظر ما تقول؟" فقال معبد: "والله ما أرى أن ترتحل من مكانك هذا حتى ترى نواصي الخيل".قال أبو سفيان: "والله لقد أجمعنا الكرة عليهم، لنستأصل بقيتهم"، قال: "فإني أنهاك عن ذلك. والله لقد حملني ما رأيت على أن قلت فيهم أبياتاً من الشعر".قال: "وما قلت؟"فأنشده شعراً فيه تحذير له من لقاء المسلمين، وبيان قوتهم، فثنى ذلك أبا سفيان ومن معه، وانسحبوا في أسرع وقت يواصلون سيرهم نحو مكة.فهذا يدل على إخلاص بعض رجال هذه القبيلة لرسول الله صوثقته بهم. سيرة ابن هشام ،102/2، ومغازي الواقدي ، 338/1، وتاريخ خليفة ، ص 74، والبداية والنهاية لابن كثير ، 49/4، والاستيعاب لابن عبد البر ، 454/3 ، وأسد الغابة لابن الأثير ، 217/5-218، إبراهيم بن إبراهيم قريبي ، مرويات غزوة بني المصطلق وهي غزوة المريسيع ، ص55

وأول إشارة إلى اتخاذهم موقفاً عدائياً واضحاً ضد المسلمين هو إسهامهم مع قريش في موقعة أحد، ضمن كتلة الأحابيش (293)، التي اشتركت في المعركة تأييداً لقريش(294).

حتى كانت عزوة أحد وما لحق بالمسلمين فيها من خسائر جسيمة ذات أثر عظيم في أرجاء شبه الجزيرة العربية، وداخل المدينة المنورة نفسها، فضعفت هيبة المسلمين وتجرّأ عليهم الأعراب، وشمت بهم اليهود والمنافقون، وقاموا بدعاية واسعة ضدهم، وصار المسلمون لا يحاربون قريشاً وحدها وإنما يواجهون الجزيرة برمتها.

وسارعت عدة قبائل إلى التجمّع للإغارة على المدينة والقضاء على المسلمين فيها، كما حدث ذلك من بني أسد بقيادة طليحة وسلمة ابني خويلد الأسديين من القبائل النجدية ، خالد بن سفيان الهذلي الذي كان مقيماً في عرنة قرب عرفات.فلما علم رسول الله ص بتجمّعهم ومحاولتهم اقتحام المدينة بعث إليهممن يؤدّبهم في عقر دارهم ،

---

293) الأحابيش هم بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة، والهون بن خزيمة بن مدركة، وبنو المصطلق من خزاعة، انظر : سيرة ابن هشام ، 373/1، المعارف لابن قتيبة، ص26، أنساب الأشراف للبلاذري ، ص52، فتح الباري لابن حجر، 334/5 و342، وسمّوا بذلك: لأنهم تحالفوا وتعاقدوا مع قريش على أنهم يد على من سواهم، وكان ذلك عند جبل بأسفل مكة يقال به ((حبشي)) فنسبوا إليه، وقيل سمّوا بذلك لتجمّعهم، والتحبّش التجمع، والحباشة الجماعة.المعارف لابن قتيبة ، ص 269، لسان العرب لابن منظور، 166/8، والقاموس المحيط للفيروز آبادي، 267/2، فتح الباري 334/5.

294) سيرة ابن هشام ، 61/2، مغازي الواقدي ، 200/1، الكامل لابن الأثير،149/2، زاد المعاد لابن القيم ، 102/2، البداية والنهاية لابن كثير ،10/4

فكان في ذلك ضربة لهم وعبرة لغيرهم ممن يحاول السير على منوالهم. وما نزل بهم حلّ بغيرهم من بني ثعلبة وبني محارب من القبائل الغطفانية التي حاولت الهجوم على المدينة المنورة كذلك فخرج رسول الله ص على رأس سبعمائة مقاتل فساروا حتى نزلوا ديار العدو فلم يجدوا فيها أحداً غير نسوة فأخذوهن، فبلغ الخبر رجالهن فخافوا وتفرّقوا في رؤوس الجبال، ورجع المسلمون معزّزي الجانب، وعرفت هذه الغزوة بغزوة ذا الرقاع(295).

ثم جاء دور بني المصطلق؛ إذ إنها كانت ضمن كتلة الأحابيش التي انضمت إلى جانب قريش في معركة أحد، ثم أخذت بعد رجوعها من معركة أحد تعد العدة وتجمع الجموع، وتفتني السلاح والخيل، على مدى سنتين، كان المسلمون خلال تلك الفترة يواجهون تحركّات قبائل الجزيرة، فهم ما بين سرية وغزوة.

فانتهزت قبيلة بني المصطلق فرصة انشغال المسلمين ببقية القبائل، فأخذت تجمع الجموع، وتسعى في القبائل المجاورة لها، تحرّضها وتشجّعها على الانضمام معها في الهجوم على دولة الإسلام.

295) مرويات غزوة بني المصطلق وهي غزوة المريسيع ، ص 69

ولما وصل خبرهم إلى رسول الله ص، قدّر للموقف قدره، وجعل يفكّر في مواجهة هذه القبيلة التي استعدت للمعركة استعداداً كاملاً، فبدأ بمراقبة حركات هذا العدو مراقبة شديدة، ثم أمر بريدة بن الحصيب بالذهاب إليهم ليعرف وجهتهم وقوّتهم، فخرج مسرعاً حتى وصل عندهم فوجدهم قوماً مغرورين بأنفسهم وبما لديهم من القوة قد ألبّوا القبائل وجمعوا الجموع، فاتصل برئيسهم الحارث بن أبي ضرار، فسأله الحارث: "من الرجل؟" قال: "رجل منكم قدمت لما بلغني عن جمعكم لهذا الرجل، فأسير في قومي ومن أطاعني، فتكون يدنا واحدة، حتى نستأصله"، فازداد فرح القوم بانضمام قوة جديدة إلى قوتهم، فقال له الحارث: "فنحن على ذلك فعجّل علينا"، قال بريدة: "أركب الآن فآتيكم بجمع كثيف من قومي ومن أطاعني فسرّوا بذلك منه فمضى إلى المدينة وأخبر المسلمين بأمرهم(296)

296) انظر: طبقات ابن سعد ، 63/2، ومغازي الواقدي،404/1- 405، وشرح المواهب اللدنية ،96/2، مرويات غزوة بني المصطلق وهي غزوة المريسيع، ص 71

وبعد أن تأكد الحبيب محمد من هذه الأنباء شرع في تجهيز الجيش لمقاتلة بني المصطلق ودفع أذاهم ، وفي يوم الاثنين لليلتين خلتا من شهر شعبان من السنة الخامسة للهجرة (297) خرج الرسول - ص- من المدينة في سبعمائة مقاتل، وثلاثين فارساً متوجهاً إلى بني المصطلق (298)

ولما كان بنو المصطلق ممن بلغتهم دعوة الإسلام، واشتركوا مع الكفار في غزوة أحد، وكانوا يجمعون الجموع لحرب المسلمين فقد روى البخاري ومسلم(299)، أن رسول الله - ص- أغار عليهم وهم غارون -أي غافلون- وأنعامهم تسقى على الماء، فقتل مقاتلهم وسبى ذراريهم، وأصاب يومئذ جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار(300)

وعاد النبي ص من هذه الغزوة إلى المدينة هلال رمضان، بعد أن غاب عنها ثمانية وعشرين يوما (299).

---

297) ابن كثير- البداية ،3/ 242، 4/ 156 وهذا هو الراجح حكاه موسى بن عقبة عن الزهري وعن عروة، وتابعه أبو معشر والواقدي وابن سعد ، انظر ابن حجر فتح الباري 7/ 430، مغازي 1/ 404، ابن سعد- الطبقات 2/ 63، البيهقي- السنن 9/ 54، ابن القيم ، زاد المعاد 3/ 125، الذهبي ، تاريخ الإسلام 2/ 275.

298) الذهبي ، تاريخ الإسلام (المغازي) ، 1/ 230، الواقدي ، مغازي 1/ 404.

299) الواقدي ، مغازي 1/ 404.

ولما قسم رسول الله - ص- سبايا بني المصطلق وكان من بين الأسرى جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار الخزاعية ، ، فوقعت في السهم لثابت بن قيس بن الشماس الأنصاري ، فكاتبها على نفسها ، فأتت رسول الله ص تستعينه في كتابتها ، وكانت بركة على قومها فتقول السيدة عائشة ك: (لما قسم رسول الله - ص- سبايا بني المصطلق وقعت جويرية بنت الحارث في سهم لثابت بن قيس بن شماس، أو لابن عم له، فكاتبته على نفسها وكانت امرأة حلوة ملاحة (300) لايراها أحد إلا أخذت بنفسه، فأتت رسول الله - ص- لتستعينه في كتابتها. قالت: فوالله ماهو أن رأيتها على باب حجرتي فكرهتها وعرفت أنه سيرى منها مارأيت، فدخلت عليه فقالت: يارسول الله ص أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه،

300) ملاحة: بضم الميم وتشديد اللام أي شديدة الملاحة، وهو من أبنية المبالغة، انظر غريب الحديث لابن الأثير 355/4. وكنّت به عائشة عن جمالها، وكانت جويرية قبل رسول الله ص تحت مسافع بن صفوان المصطلق ذي الشفر بن سرح بن مالك ابن جذيمة، فقتل يوم المريسيع. انظر طبقات ابن سعد ، 116/8، وأسد الغابة لابن الأثير ، 56/7، والإصابة لابن حجر ، 265/4. وعند ابن إسجاق كانت تحت ابن عم لها يقال له: ابن ذي الشفر انظر سيرة ابن إسحاق المسماة المبتدأ والمبعث والمغازي ، 245/1، والإصابة لابن حجر ، 266/4.

وكانت وفاتها سنة 56 . وهي التي روت حديث أن النبي ص خرج من عندها بكرة حين صلى الصبح وهي في مسجدها ثم رجع بعد أن أضحى وهي جالسة، فقال: "ما زلت على الحال التي فارقتك عليها" قالت: نعم، يا رسول ص: "لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بما قلت منذ اليوم، لوزنتهن سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلمات" انظر صحيح مسلم 83/8، كتاب الذكر والدعاء وهو من رواية عبد الله بن عباس عنها. قال الذهبي في تجريد أسماء الصحابة 271/2 جويرية التي قال لها النبي ص: "لقد قلت بعدك أربع كلمات لو وزنت بما قلت" ...الخ.

وقد أصابني من البلاء مالم يخف عليك، فوقعت في السهم لثابت بن قيس بن شماس أو لابن عم له فكاتبته على نفسي فجئتك استعينك على كتابتي.

قال: فهل لك في خير من ذلك؟ قالت: وماهو يارسول الله ص ؟ قال: أقض عنك كتابك واتزوجك، قالت: نعم يارسول الله ص قد فعلت.

قالت: وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله - ص- قد تزوج جويرية بنت الحارث.فقال الناس: أصهار رسول الله - ص- فأرسلوا ما بأيديهم.قالت: فلقد اعتق بتزويجه إياها مائة (301) أهل بيت من بني المصطلق فما أعلم امرأة أعظم بركة على قومها منها(302).وهكذا كان زواج رسول الله صمن جويرية بركة على قومها وعزا لها ورفعة لقومها من الهوان الذي لحقهم، وبذلك يمكن لنا أن نستجلي بعض الحكمةفي زواجه فمنها. وتعتبر غزوة بني المريسيع من الغزوات الفريدة المباركة التي أسلمت عقبها قبيلة بأسرها. وكان الحدث الذي أسلمت القبيلة من أجله هو أن الصحابة حرروا وردوا الأسرى الذين أصابوهم إلى ذويهم بعد أن تملكوهم باليمين في قسم الغنائم واستكثروا على أنفسهم أن يتملكوا أصهار نبيهم عليه الصلاة والسلام، وحيال هذا العتق الجماعي، وإزاء هذه الأريحية الفذة، دخلت القبيلة كلها في دين الله.

---

301) (مئة أهل بيت) قال صاحب عون المعبود: "كذا بالإضافة أي مئة طائفة كل واحدة منهن أهل بيت، ولم تقل مائة هم أهل بيت لإيهام أنهم مائة نفس كلهم أهل بيت وليس مراداً، وقد روى أنهم كانوا أكثر من سبعمائة قاله الزرقاني". عون المعبود ، 444/10، وانظر شرح المواهب اللدنية للزرقاني ،245/3.

302) البداية والنهاية ، 161/4،160

إن مرد هذا الحدث التاريخي وسببه البعيد، هو حب الصحابة للنبي - ص- وتكريمهم إياه، وإكبارهم شخصه العظيم، وكذلك يؤتي.
لقد كان زواج رسول الله - ص- من جويرية بنت الحارث له أبعاده وتحققت تلك الأبعاد بإسلام قومها، فقد كان الزواج منها من أهدافه الطمعفي إسلام قومها، وبذلك يكثر سواد المسلمين، ويعز الإسلام وهذه مصلحة إسلامية بعيدة يسر الله هذا الزواج، وباركه، وحقق الأمل البعيد المنشود من ورائه، فأسلمت القبيلة كلها بإسلام جويرية، وإسلام أبيها الحارث، فقد عاد هذا الزواج على المسلمين بالبركة والقوة، والدعم المادي والأدبي معاً للإسلام والمسلمين(303). وقد حاول المنافقون (304) في هذه الغزوة إثارة الفتنة بين المهاجرين والأنصار وكان قد خرج في هذة الغزوة عدد كبير من المنافقين مع المسلمين وكان يغلب عليهم التخلف في الغزوات السابقة، لكنهم لما رأوا اطراد النصر للمسلمين خرجوا طمعاًفي الغنيمة(305)

---

303) د.محمد فيض الله ، صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، ص99 - 100
304) النفاق لغة: ضرب من التمويه والستر والتغطية، وحقيقته: إظهار شيء وإبطان ضده. مشتق من النافقاء أحد جحرة ، اليربوع، يكتمها ويظهر غيرها، فإذا طلب من واحد هرب إلى الآخر وخرج منه ، وشرعا: هو إظهار الإيمان وستر الكفر.
واليربوع: حيوان طويل الرجلين قصير اليدين جدا، وله ذنب كذنب الجرذ، ،يسكن باطن الأرض، وتسمى حفرته النافقاء والقاصعاء والراهطاء، فإذا طلب من إحدى هذه الفتحات خرج من الأخرى، وظاهر بيته تراب وباطنه حفر، وكذلك المنافق: ظاهره إيمان وباطنه كفر.أنظر المصباح المنير، 1/ 100 ، حياة الحيوان ، للدميري ، 2/ 435.
305) حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول ص ، 318/1

وهؤلاء قد ساءهم كثيرا ما تحقق للمسلمين من نصر وغنائم في هذه الغزوة وسعوا إلي إفساد فرحة المسلمين وعمدوا إلى إثارة العصبية بين المهاجرين والأنصار، يقول جابر ا : غزونا مع النبي ص، وقد ثاب(306) معه ناس من المهاجرين، حتى كثروا، وكان من المهاجرين رجل لعاب(307)، فكسع أنصاريا فغضب الأنصاري غضبا شديدا حتى تداعوا وقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فخرج النبي ص، فقال: "ما بال دعوى الجاهلية"، ثم قال: "ما شأنهم؟" فأخبر بكسعة المهاجري، الأنصاري، قال: فقال النبي ص: "دعوها فإنها خبيثة"، وقال عبد الله ابن أبي ابن سلول: "أقد تداعوا علينا، لئن رجعنا إلى المدينة، ليخرجن الأعز منها الأذل"، فقال عمر: "ألا نقتل يا رسول هذا الخبيث" لعبد الله، فقال النبي ص: "لا يتحدث الناس أنه يقتل أصحابه"(308).

---

306) ثاب معه: أي اجتمع.

307) رجل لعاب: أي بطال، وقيل كان يلعب بالحراب كما تصنع الحبشة، وهو جهجاه ابن قيس الغفاري، فتح الباري 6/ 546 وسماه ابن إسحاق: جهجاه بن مسعود. وكان جهجاه من المتألبين على عثمان بن عفان وأنه قام إلى عثمان وهو على المنبر فأخذ عصاه وكسرها فما حال عليه الحول حتى أرسل الله في يده الأكلة فمات منها، هكذا نقل ابن حجر في الإصابة 1/ 253.

308) البخاري 4/ 146-147، كتاب المناقب، باب ما ينهى من دعوى الجاهلية.

ويقول زيد بن أرقم عن ذلك:كنت في غزاة(309) فسمعت عبدالله بن أبييقول: لاتنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله، ولئن رجعنا من عنده ليخرجن الأعز منها الأذلَّ، فذكرت ذلك لعمي(310)، فذكره للنبي - ص-

فدعاني فحدثته، فأرسل رسول الله - ص- إلى عبدالله بن أبي وأصحابه، فحلفوا ماقالوا. فكذبني رسول الله - ص- وصدقه، فأصابني هم لم يصبني مثله قط، فجلست في البيت، فقال لي عمي: ماأردت إلى أن كذبك رسول الله - ص- ومقتك؟ فأنزل الله تعالى إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ [سورة المنافقون: الآية 1]فبعث إلى رسول الله - ص- فقرأ، فقال:(إن الله قد صدقك يازيد) (311).وعند ابن إسحاق قال : "فبينا رسول الله ص على ذلك الماء(312)

309) غزاة: صرحت الروايات الأخرى بأنها بني المصطلق.
310) يريد بعمة سعد بن عبادة وهو رأس الخزرج وليس عمه حقيقة.
311) البخاري ، الفتح 8 (4900) واللفظ له. ومسلم (2772) نحو حديث البخاري.
312) هو ماء المريسيع

وردت واردة الناس، ومع عمر بن لخطاب أجير له، من بني غفار يقال له جهجاه بن مسعود يقود فرسه، فازدحم جهجاه وسنان بن وبر الجهني حليف بني عوف بن الخزرج على الماء، فاقتتلا، فصرخ الجهني: يا معشر(313)

الأنصار، وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين، فغضب عبد الله بن أبي ابن سلول، وعنده رهط من قومه، فيهم: زيد بن أرقم غلام حدث، فقال: "أو قد فعلوها؟ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما أعدنا وجلابيب(314) قريش إلا كما قال الأول(315):سمن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل"، ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم: "هذا ما فعلتم بأنفسكم أحللتموه بلادكم، وقاسمتموه أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم"، فسمع ذلك زيد بن أرقم فمشى به إلى رسول ص،

313) معشر: كمسكن: الجماعة وأهل الرجل. القاموس المحيط ، 2/ 90.

314) جلابيب: لقب لمن أسلم من المهاجرين، لقبهم بذلك المشركون، وأصل الجلابيب: الأزر الغلاظ، كانوا يلتحفون بها، فلقبوهم بذلك.

315) كما قال الأول: سمن كلبك يأكلك، وعند الطبري كما قال القائل، وهو مثل من أمثال عرب، وأول من قاله: حازم بن المنذر الحماني، وذلك أنه مر بمحلة همدان فوجد غلاما ملفوفا في ثوب، فرحمه وحمله معه وقدم به منزله وأمر أمة له أن ترضعه حتى كبر وراهق الحلم، فجعله راعيا لغنمه وسماه جحيشا، وكان لحازم ابنة يقال لها: راعوم فهويت الغلام وهويها وانتبه حازم لهذا فترصد لهم حتى عرف الحقيقة ووجدهم على الفاحشة، فقال: سمن كلبك يأكلك، فأرسلها مثلا وشد على جحيش ليقتله ففر ولحق بقبيلته، انظر مجمع الأمثال للميداني ، 1/ 333. ورقم المثل (1787).

وذلك عند فراغ رسول الله ص من عدوه، فأخبره، وعنده عمر بن الخطاب، فقال: "مر به عباد بن بشر فليقتله"، فقال له رسول الله ص: "

فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدا ص يقتل أصحابه، لا"، ولكن أذن بالرحيل، وذلك ساعة لم يكن رسول الله ص يرتحل فيها، فارتحل الناس، وقد مشى عبد الله بن أبي بن سلول إلى رسول الله ص، حين بلغه أن زيد بن أرقم قد بلغه ما سمع منه، فحلف بالله: ما قلت ما قال: ولا تكلمت به - وكان شريفا عظيما - فقال من حضر رسول الله ص من الأنصار من أصحابه: "يا رسول الله عسى أن يكون الغلام قد أوهمفي حديثه، ولم يحفظ ما قال الرجل"، حدبا(316) على ابن أبي ابن سلول، ودفعا عنه فلما استقل رسول الله ص، وسار لقيه أسيد بن حضير، فحياه بتحية النبوة وسلم عليه، ثم قال: "يا نبي الله، والله لقد رحت في ساعة مبكرة، ما كنت تروح في مثلها" فقال له رسول الله ص: "أو ما بلغك ما قال صاحبكم؟" قال: وأي صاحب يا رسول الله ص؟

316) حدبا على ابن أبي: أي عطفا عليه.

قال: "عبد الله بن أبي"، قال: وما قال؟ قال: "زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل"، قال: فأنت يا رسول الله ص، والله تخرجه منها إن شئت هو والله الذليل، وأنت العزيز، ثم قال: "يا رسول الله ص أرفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه ينظمون له الخرز ليتوجوه، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكا". ثم مشى رسول الله ص بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح وصدر يومهم ذلك حتى آذنهم الشمس، ثم نزل بالناس، فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نياما، وإنما فعل ذلك رسول الله ص ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس، من حديث عبد الله بن أبي، إلى أن قال: "وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه، ويأخذونه ويعنفونه"، فقال رسول الله ص لعمر بن الخطاب حين بلغه ذلك من شانهم: "كيف ترى يا عمر، أما والله لو قتلته يوم قلت لي اقتله، لأرعدت (317) له آنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته".

317) لأرعدت له آنف: أي انتفخت واضطربت أنوفهم حمية وعصبية.

قال: قال عمر: "قد والله علمت لأمر رسول الله ص أعظم بركةمن أمري"(318).

وهكذا قضى رسول الله صعلى هذه الفتنة التي كادت تفكك وحدة المسلمين وتمزق شملهم وتجعلهم شيعا وأحزابا، فتقر بذلك أعين المنافقين وأعداء الدين، لكن الإيمان الذي ربى رسول الله صأصحابه عليه، كان أقوى من مكيدة المنافقين، فما أن سمع المسلمون كلام الرسول ص بأمرهم بترك دعوى الجاهلية حتى خمدت الفتنة التي أوقد المنافقون نارها، ثم اتخذ الرسول الكريم ص التدابير التي تقضي على آثارها وتعيد الإخاء والمودة إلى نفوس المسلمين.

والحكمة ظاهرة من أمره فبالرحيل في وقت غير معتاد، وهي أن ترك مثل هذا الخبر ينتشر في الجيش يسبب بلبلة في الأفكار، ويثير القيل والقال مما ويصرف أذهان الجند الإسلامي إلى مهاترات كلامية، لا تحمد عقباها، فكانت مسيرة الجيش المتصلة ليلا ونهارا، مما أجهدهم، حتى وقعوا نياما، فمسح النوم العميق بعد النصب الشديد آثار الفتنة.وهذا منهج في سياسة الأمور ينبغي أن يسلكه القادة الراشدون في كل زمان ومكان(319).

---

318) سيرة ابن هشام ، 2/ 290- 293.

319) مرويات غزوة بني المصطلق وهي غزوة المريسيع ، ص 190

وقد كان لتسامح الرسول ص مع رأس المنافقين أبعد الآثار فيما بعد، فقد كان ابن أبي سلول كلما أحدث حدثاً كان قومه هم الذين يعاتبونه، ويأخذونه ويعنّفونه ويعرضون قتله على النبي ص، والرسول ص يأبى ويصفح، فأراد رسول الله ص أن يكشف لسيف الحق عن آثار سياسته الحكيمة، فقال: (كيف ترى ياعمر؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لي لأرعدت له آنف لو أمرتها اليوم لقتلته!!) فقال عمر قد -والله- علمت لأمر رسول الله - ص- أعظم بركة من أمري(320).

وكان لابن أبي بن سلول ولد مؤمن مخلص يسمى عبدالله بن عبدالله بن أبي بن سلول، فلما علم بالأحداث ونزول السورة، أتى رسول الله صقال له: (يارسول الله ص! بلغني أنك تريد قتل أبي بن سلول فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلاً، فمرني به فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج، ماكان بها من رجل أبر بوالده مني، وإني لأخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي بين الناس، فأقتله، فأقتل رجلاً مؤمناً بكافر، فأدخل النار، فقال رسول الله - ص-: بل نترفق به ونحسن صحبته مابقي معنا(321).ولما وصل المسلمون مشارف المدينة راجعين وقف عبد الله بن عبد الله هذا على باب المدينة واستل سيفه فجعل الناس يمرون عليه،

320) سيرة ابن هشام ، 2/ 290- 293.
321) سيرة ابن هشام ، 2/ 290- 293.

فلما جاء أبو عبد الله ابن أبي، قال له ابنه وراءك؟ فقال مالك ويلك؟ فقال: "والله لا تجوز من ههنا حتى يأذن لك رسول الله ص صفإنه العزيز وأنت الذليل"، فلما جاء رسول الله ص، وكان إنما يسير ساقة فشكا إليه عبد الله بن أبي ابنه، فقال ابنه عبد الله: "والله يا رسول الله ص لا يدخلها حتى تأذن له"، فأذن له رسول الله ص فقال: "أما إذا أذن لك رسول الله ص، فجز الآن"(322).

وهنا يبرز لنا موقفا صلبا قويا من مواقف العقيدة الإسلامية إذا تمكنتمن قلب المسلم ورسخت فيه، ذلك لأن بناء الشخصية الإسلامية على هذه العقيدة يخرج للبشرية نمطا فريدا من الناس يتحدون جميع الروابط والأواصر التي عهدها البشر في أعرافهم وتقاليدهم ومذاهبهم الاجتماعية، وتكون الآصرة الوحيدة في حياة المسلم هي آصرة العقيدة وحدها، ومن هنا نفهم ما ورد في التاريخ الإسلامي من رسوخ المسلم وثباته في وجه أبيه وأخيه الكافرين ولو أدى به ذلك إلى قتلهما لأن أغلى شيء يملكه المسلم هو عقيدته، فإذا وقف في سبيل الدعوة إليها عرف اجتماعي أو رابطة قبلية أو مذاهب تقليدية، تحداها المسلم بعزم وإصرار.

322) تفسير ابن كثير، 4/ 372، وتاريخه ، 4/ 158.

ومن ذلك هذا الموقف المشرف الذي وقفه عبد الله بن عبد الله بن أبي من أبيه عبد الله بن أبي ابن سلول، حتى وصل به الأمر إلى مراودةالرسول ص واستئذانه في قتله إن كان يحب ذلك.

وليس في الدنيا مذهب يخلق هذا النوع الفريد من التفاني في سبيل المبدأأو العقيدة وتلك معجزة عقيدة الإسلام التي يفتقر إليها الناس في كل زمان ومكان وهي وحدها الكفيلة بسعادة البشرية ووحدتها وقوتها فما أحوجها إلى مثل هذا الغرس الطيب لينشأ جيل فريد في تصوره الإسلامي، وسلوكه العملي في واقع الحياة لانتشال شباب الأمة الإسلامية من وهده الضلال إلى قمة العقيدة الإسلامية واستعلائها.

وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ [سورة آل عمران: الآية 139].

ويدل لهذا قوله تعالى: لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ [سورة المجادلة: الآية 22]

قال ابن كثير: "قوله نزلت في أبي عبيدة قتل أباه يوم بدر نزلت في أبي بكر الصديق هم فيومئذ بقتل ابنه عبد الرحمن، في مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير يومئ في عمر بن الخطاب قتل قريبا له يومئذ.

وفي حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث قتلوا: عقبة وشيبة والوليد بن عتبة يومئذ وهو من عشيرتهم"(323).وفي أعقاب غزوة بني المصطلق نزلت سورة المنافقون حيث كان المسلمون راجعين إلى المدينة وذلك بدليل رواية الإمام الترمذي (فلما أصبحنا قرأ رسول الله - ص- سورة المنافقون) (324).فقد تحدثت السورة بإسهاب عن المنافقين، وأشارت إلى بعض الحوادث والأقوال التي وقعت منهم ورويت عنهم وفضحت أكاذيبهم، إلا أنها في الختام حذرت المؤمنين من الإنشغال بزينة الدنيا ومتاعها وحثت على وهكذا كان المجتمع المدني يتربى بالأحداث والقرآن الكريم يقوم بتوجيهه وتعليمه ورسول الله - ص- يقوم بالإشراف على ذلك.إن معالجة الرسول ص لتلك السموم التي نفثها المنافقون في ساحة الجيش الإسلامي، ابتغاء تمزيق وحدته وتفريق كلمته، لتدل دلالة واضحة على أنالرسول ص محاط بالعناية من الله عز وجل وعلى أنه:

إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ [سورة النجم: الآية 4]

323) تفسير ابن كثير، 4/ 329 ، مرويات غزوة بني المصطلق وهي غزوة المريسيع ، ص 195

324) سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة المنافقون ، 415/5 .

لقد كان ما تفوه به ابن أبي من الكلام البذيء مسوغا كافيا لقتله، وإراحة الناس من شره، ولكن الرسول ص لبعد نظره وتوفيق الله له، رأى أن المصلحة تقتضي التسامح والصفح عنه، فقابل تلك الأذية والقول اللاذع بصدر رحب وقلب واسع، فقد ضاقت نفس عمر بن الخطاب ذرعا بهذا المنافق ووسعه حلم الرسول ص وصفحه الجميل عمن أساء إليه، يوضح ذلك ما ورد منقوله فعندما قال له عمر بن الخطاب ا : "يا رسول الله ص دعني أضرب عنق هذا المنافق" فقال: "كيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه".ولكن أذن بالسير فسار بالناس في ساعة لم يعهد له أن يسير في مثلها، وأمر بالسير المتواصل حتى لا يتمكن المنافقون من التجمع والخوض في حديث ابن أبي وترويجه بين الناس.ولقد توقع الناس أن رسول الله ص سيعاقب المنافقين على سوء صنيعهم وعلى الأقل بقتل رأس الفتنة ابن أبي ولكن لم يقع شيء من هذا كله، ولقد جاء ابنه عبد الله بن عبد الله بن أبي ا فقال: "يا رسول الله ص إن كنت أمرت بقتل والدي فأنا الذي آتيك برأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مني، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشي في الناس فأقتله، فأقتل رجلا مؤمنا بكافر، فأدخل النار" فكان الجواب النبوي "بل نترفق ونحسن صحبته ما بقي معنا"(325).

325) سيرة ابن هشام ، 292/2- 293.

لقد كان من آثار هذه المعاملة الحسنة أن قوم عبد الله بن أبي ابن سلول هم الذين أخذوا يعنفونه ويفضحون أمره ويأخذون على يديه، ولما بلغ رسولالله صهذا من فعلهم مع ابن أبي أرسل إلى عمر بن الخطاب فقال له: "كيف ترى يا عمر، أما والله لو قتلته يوم قلت لي اقتله، لأرعدت له آنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته"، قال عمر بن الخطاب: "قد علمت والله لأمر رسول الله ص أعظم بركة من أمري"(326).

وبعد أن فشل كيد المنافقون في المحاولة الأولى لإثارة النعرة الجاهلية حاكوا حادثة الإفك. وقد أخرج البخاري ومسلم حديث الإفك في صحيحهما وهذا سياق القصة من صحيح البخاري.

قالت عائشة ك: كان رسول الله - ص- إذا أراد أن يخرج أقرع بين أزواجه فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله -ص- معه، قالت عائشة: فأقرع بيننا في غزوة غزاها(327) فخرج سهمي فخرجت مع رسول الله - ص- بعد مانزل الحجاب فأنا أحمل في هودجي(328)

---

326) سيرة ابن هشام ، 2/292- 293.

327) هي غزوة بني المصطلق.

328) الهودج:مركب النساء. انظر القاموس المحيط ، 1/ 212. وفي فتح الباري ، 8/ 458.

الهودج: بفتح الهاء والدال بينهما واو ساكنة وآخره جيم: محمل له قبة تستر بالثياب ونحوه، يوضع على ظهر البعير يركب فيه النساء ليكون أستر لهن.

وأنزل فيه ، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله - ص- من غزوته تلك وقفل ودنونا من المدينة قافلين آذن ليلة بالرحيل فقمت حين آذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي فإذا عقد لي من جزع ظفار(329) قد انقطع، فالتمست عقدي وحبسني ابتغاؤه وأقبل الرهط (330) الذين كانوا يرحلون لي فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت ركبت وهم يحسبون أني فيه، وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يثقلهن اللحم إنما نأكل العُلقْة(331)من الطعام فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وكنت جارية حديثة السنة فبعثوا الجمل وساروا فوجدت عقدي بعدما استمر الجيش فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب فأقمت منزلي الذي كنت فيه

---

329) جزع ظفار: هو خرز معروف في سواده بياض كالعروق وهي مدينة باليمن. انظر النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ،1/ 269 ، والقاموس المحيط ، 3/ 12، وشرح مسلم للنووي ، 5/ 630، وفتح الباري ، 8/ 459.

330) الرهط من الرجال ما دون العشرة وقيل إلى الأربعين ولا تكون فيهم امرأة، ولا واحد له من لفظه، ويجمع على أرهط وأرهاط وأراهط جمع الجمع. النهاية في غريب الحديث لابن الأثير 2/ 283. وقال ابن حجر: "لم أعرف منهم هنا أحدا إلا أن في رواية الواقدي أن أحدهم أبو موهوبة مولى رسول الله ص، وعند البلاذري: شهد أبو مويهبة غزوة المريسيع وكان يقود بعير عائشة، وكان من مولدي مزينة، وكأن الأصل أبو موهوبة ويصغر فيقال: أبو مويهبة". فتح الباري 8/ 459. وانظر مغازي الواقدي 2/ 426 وأنساب الأشراف للبلاذري ص 488.

331) العلقة: بضم المهملة وسكون اللام من الطعام: أي البلغة منه، النهاية في غريب الحديث لابن الأثير، 3/ 289.

وظننت أنهم سيفقدوني فيرجعون إليّ فبينما أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت، وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني من وراء الجيش فأدلج(332) فأصبح عند منزلي فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني فعرفني حين رآني وكان يراني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه(333) حين عرفني فخمرت(334) وجهي بجلبابي والله ماكلمني كلمة ولاسمعت منه كلمة غير استرجاعه حتى أناخ راحلته فوطئ على يديها فركبتها فانطلق يقود بي الراحلة، حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرين(335)في نحر الظهيرة(336) فهلك من هلك، وكان الذي تولى الإفك عبدالله بن أبي بن سلول ، وقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمت شهراً والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك لا أشعر بشيء من ذلك وهو يريبني(337)

332) فأدلج: بالتشديد سار آخر الليل.
333) أي بقوله: إنا لله وإنا إليه راجعون.
334) فخمرت: أي غطيت.
335) موغرين: الوغرة: شدة الحر.
336) نحر الظهر: أولها وهو وقت شدة الحر.
337) يريبني: يشككني.

إني لا أعرف من رسول الله - ص- اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل علي رسول الله - ص- فيسلم ثم يقول: كيف تيكم؟ (338) ثم ينصرف، وذلك الذي يريبني ولا أشعر بالشر حتى خرجت بعدما نقهت (339) فخرجت معي أم مسطح قبل المناصع(340) وهو متبرزنا وكنا لانخرج إلا ليلاً إلى ليل وذلك قبل أن نتخذ الكنف(341) قريباً من بيوتنا وأمرنا أمر العرب الأول في التبرز قبل الغائط فكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا، فانطلقت أنا وأم مسطح (342)

338) كيف تيكم: وهي للمؤنث مثل ذاكم للذكر.

339) نقه المريض من باب طرب وخضع إذا برأ وأفاق وكان قريب العهد بالمرض، ولم يرجع إليه كمال صحته وقوته. النهاية في غريب الحديث لابن الأثير، 5/ 111 ، والقاموس المحيط 4/ 294، ومختار الصحاح، ص 678. وعند ابن إسحاق حتى نقهت من وجعي بعد بضع وعشرين ليلة. سيرة ابن هشام، 2/ 299.

340) المناصع: المواضع التي يتخلى فيها لقضاء الحاجة.

341) الكنف: جمع كنيف: المكان الساتر.

342) قال ابن عبد البر: اسمها سلمى بنت صخر بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم وهي ابنة خالة أبي بكر الصديق. وقيل - أم مسطح بنت أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف - وأمها ريطة بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق. والظاهر أنها سلمى بنت أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف، واسم أبي رهم أنيس مكبرا لا سلمى بنت صخر فإن هذا نسب أم أبي بكر الصديق خالة أم مسطح وهي سلمى بنت صخر بن عامر...الخ

ووالدة أم مسطح اسمها ريطة بنت صخر بن عامر بن سعد بن تيم، وقال ابن حجر: رائطة حكاه أبو نعيم. انظر الاستيعاب، 3/ 494 ، وطبقات ابن سعد، 8/ 228 و 3/ 53 و 169 ، وأسد الغابة لابن الأثير، 4/ 308 و5/ 156 و7/ 326 و393، وفتح الباري، 8/ 465.

وهي ابنة أبي رهم بن عبد مناف، وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق وابنها مسطح بن أثاثة(343) فأقبلت أنا وأم مسطح قبل بيتي قد فرغنا من شأننا فعثرت أم مسطح في مرطها(344) فقالت: تعس مسطح فقلت لها: بئس ماقلت أتسبين رجلاً شهد بدراً؟ (345) قالت: أي -هنتاه(346) أولم تسمعي ماقال قلت: وماقال. فأخبرتني بخبر أهل الإفك فازددت مرضاً على مرضي قالت فلما رجعت إلى بيتي ودخل عليّ رسول الله - ص- تعني فسلم- ثم قال كيف تيكم؟ فقلت: أتأذن لي أن آتي أبوي؟قالت: وأنا حينئذ أريد أن استيقن الخبر من قبلهما قالت: فأذن لي رسول الله - ص- فجئت أبوي فقلت لأمي: يا أمتاه مايتحدث الناس؟ قالت: يابنية هوني عليك فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة(347)

---

343) مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب، توفي في خلافة عثمان.

344) فعثرت في مرطها: أي وطئته برجلها فسقطت.

345) فهي منقبة عظيمة لمن شهد بدرا، ويزيد ذلك وضوحا قصة حاطب بن أبي بلتعه عندما كتب إلى أهل مكة يخبرهم أن رسول الله ص يريد أن يغزوكم في عام فتح مكة، وكشف أمره واعتذر إلى رسول الله ص مما صنع "وفيها فقال عمر: "يا رسول الله ص دعني أضرب عنق هذا المنافق"، فقال رسول الله ص: "قد شهد بدرا وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدرا، قال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم". البخاري 5/ 119باب غزوة الفتح.

346) هنتاه: يابلهاء كأنها نسبت الى قلة المعرفة بمكائد الناس وشرورهم.

347) وضيئة: الوضاءة الحسن والبهجة.

عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها(348) قالت: فقلت سبحان الله لقد تحدث الناس بهذا؟ فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لايرقأ لي دمع(349)،

ولا أكتحل بنوم حتى أصبحت أبكي، فدعا رسول الله - ص- علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد اما حين استلبث(350) الوحي يستأمرهما في فراق أهله، قالت فأما أسامة فأشار على رسول الله بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم لهم من الود فقال: يارسول الله ص أهلك ومانعلم إلا خيراً، وأما علي بن أبي طالب فقال: يارسول الله ص لم يضيق الله عليك النساء سواها كثير وإن تسأل الجارية تصدقك ، قالت: فدعا رسول الله - ص- بريرة فقال: أي بريرة هل رأيت من شيء يريبك؟ قالت بريرة: لا والذي بعثك بالحق إن رأيت عليها أمراً أغمضه عليها(351) أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن(352) فتأكله فقام رسول الله ص استعذر(353) يومئذ من عبدالله بن أبي بن سلول قالت: فقال رسول الله - ص- وهو على المنبر(354):

348) إلا أكثرن عليها: أي القول في عيبها.
349) لا يرقأ لي دمع: لاينقطع ولا يسكت.
350) استلبث: وهو الإبطاء والتأخر.
351) أغمضه عليها: أي أعيبها به وأطعن بها عليه.
352) الداجن: هي الشاة التي يعلفها الناس في منازلهم.
353) فاستعذر: أي قال من يقوم بعذري إن كفأنه على سوء صنيعه.
354) المنبر: المراد به هنا الذي اتخذ في السنة الثانية، وكان من الطين وأما الذي اتخذ من خشب إنما كان في السنة الثامنة، وغزوة بني المصطلق كانت في الخامسة أو السادسة. السيرة الحلبية 2/ 318.

يامعشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي، فوالله ماعلمت على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً(355) ماعلمت عليه إلا خيراً، وماكان يدخل على أهلي إلا معي، فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال: يارسول الله ص أنا أعذرك منه إن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك ، قالت : فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج - وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً ولكن احتملته الحمية (356) – فقال لسعد: كذبت لعمر الله لاتقتله ولا تقدر على قتله، فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد فقال لسعد بن عبادة لنقتله فإنك منافق تجادل عن المنافقين، فتشاور الحيان(357) الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله - ص- قائم على المنبر، فلم يزل رسول الله - ص- يخفضهم حتى سكتوا وسكت ، قالت: فمكثت يومي لايرقأ لي دمع ولاأكتحل بنوم، قالت فأصبح أبواي عندي وقد بكيت ليلتين ويوماً، لا أكتحل بنوم ولا يرقأ لي دمع يظنان أن البكاء فالق كبدي، قالت فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي فاستأذنت علي امرأة من الأنصار

355) هو صفوان بن المعطل السلمي.
356) احتملته الحمية: أي حملته الأنفة والغضب على الجهل.
357) فتشاور الحيان: أي تناهضوا للنزاع والعصبية.

فأذنت لها فجلست تبكي معي قالت: فبينما نحن على ذلك دخل علينا رسول الله - ص- فسلم ثم جلس، قالت ولم يجلس عندي منذ ماقيل قبلها ، وقد لبث الوحي شهراً(358) لايوحى إليه من شأني قالت: فتشهد رسول الله - ص- حين جلس، ثم قال أما بعد: يا عائشة فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا(359) فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه،ثم تاب إلى الله تاب الله عليه فلما قضى رسول الله - ص- مقالته قلص(360) دمعي حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبي أجب رسول الله - ص- عني فيما قال، قال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله - ص-، فقلت لأمي: أجيبي رسول الله - ص- قالت: ما أدري ما أقول لرسول الله - ص-.قالت: فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن: إني والله لقد علمت لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به فلئن قلت لكم بأمر، والله يعلم أني منه لبريئة لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر، والله يعلم أني منه بريئة لتصدقن، والله ما أجد لكم مثلاً إلا قول أبي يوسف(361)

---

358) التقيد بالشهر فهو المدة التي أولها إتيان عائشة الى بيت أبويها.

359) كناية عما رميت به من الأفك.

360) قلص دمعي: أي ارتفع وذهب.

361) هو يعقوب ؑ.

قال: وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ [سورة يوسف: الآية 18] ، قالت ثم تحولت فاضطجعت على فراشي قالت: وأنا حينئذ أعلم أني بريئة، وإن الله مبرئي ببراءتي، ولكن والله ما كنت أظن أن الله منزل في شأني وحياً يتلى ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله صيّ بأمر يتلى ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله - ص- في النوم رؤيا يبرئني الله بها ن قالت: فوالله ما رام (362)-رسول الله - ص- ولاخرج أحدمن أهل البيت حتى أنزل عليه فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء (363) حتى أنه ليتحدر منه مثل الجمان (364) من العرق، وهو يوم شات من ثقل القول الذي ينزل عليه ، قالت فلما سري(365) عن رسول الله - ص- عنه وهو يضحك فكانت أول كلمة تكلم بها: يا عائشة أما الله عز وجل فقد برأك فقالت أمي: قومي إليه قالت: والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله عز وجل ،

---

362) مارام: مابرح ومافراق مجلسه.
363) البرحاء: شدة الكرب من ثقل الوحي.
364) الجمان: اللؤلؤ الصغار وقيل حب يتخذ من الفضة أمثال اللؤلؤ.
365) سري: انكشف عنه مايجده من الهم والثقل.

وأنزل الله إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ۚ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (11) لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ (12) لَّوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (13) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (14) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ (15) وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (16) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (17) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (18) إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (19) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (20) [سورة النور: الآية11- 20]، فلما أنزل الله هذا في براءتي، قال أبو بكر الصديق ا، وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره: والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة ما قال،

فأنزل الله: وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ [سورة النور: الآية 22] ، قال أبو بكر: بلى والله إني أحب أن يغفر الله لي فأرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، وقال والله لا أنزعها منه أبداً، قالت عائشة: وكان رسول الله - ص- يسأل زينب بنت جحش(366) عن أمري، فقال: يا زينب ماذا علمت أو رأيت؟، فقالت: يارسول الله ص أحمي(367) سمعي وبصري، وما علمت إلا خيراً، قالت: وهي التي كانت تساميني (368) من أزواج رسول الله - ف- فعصمها الله(369) بالورع(370) وطفقت(371) أختها حمنة(372) تحارب لها فهلكت ممن هلك من أصحاب الإفك(373).

هذا وقد بينت الروايات أن من خاض في الإفك قد تاب -ماعدا أبن أبي- وقد اعتذر حسان ا عما كان منه , وقال يمدح عائشة بما هي أهل له(374):

---

366) هي زينب بنت جحش أم المؤمنين ك وهي بنت عمته ك.
367) أحمى سمعي وبصري: أي أمنعهما من العذاب بسبب الكذب.
368) تسامين: أي تعاليني وتفاخرني أي تطاولني عنده ف.
369) ومعن عصمها: حفظها ومنعها.
370) الورع: الكف عن المحارم والتحرج منها.
371) طفقت: شرعت.
372) حمنة بنت جحش بنت عمته ـ ف- وهي أخت زينب ي.
373) البخاري، كتاب التفسير، باب {لولا إذ سمعتموه...} (6/6) رقم 4750.
374) السيرة النبوية لأبي شهبة ، 263/2

رأيتك وليغفر لك الله حرة   من المحصنات غير ذات غوائل

حصان رزانٌ ماتزن بريبة   وتصبح غرثى من لحوم الغوافل

وإنّ الذي قد قيل ليس بلائق   بك الدهر بل قيل امرئ متناحل

فإن كنت أهجوكم كما بلَّغُوكم   فلا رفعت سوطي إليّ أناملي

فكيف ووُدّي ماحييت ونصرتي   لآل رسول الله زين المحافل

ج

وإن لهم عزاً يرى الناس دونه   قصاراً، وطال العزّ كل التطاول(375)

لقد كان في هذه الغزوة من العبر والعظات الكثير ، التي لا يمن المور إلي غيرها دون ذكرها ، فكانت الحكمة في زواج الرسول ص من جويرية تتجلى في موقفها أمام رسول الله ص تذكر ما آل إليه أمرها وما تجده من المرارة والأسى على ما حل بقومها

375) تاريخ الاسلام للذهبي، المغازي، ص281.

لأنها لا تعرف الذل والهوان، فهي ابنة سيد قومه، وقد رزئت بكارثة عظمى فقتل زوجها ومقاتلة قومها وسبي النساء والذرية، ووقعت تحت ذل الرق والعبودية فكاتبت على نفسها لتظفر بحريتها، ولكنها عجزت عن أداء كتابتها فجاءت إلى رسول الله ص تسأله المواساة والمساعدة على أداء كتابتها، فوقفت أمامه تعرفه بنفسها ومكانتها في قومها، فقالت: "يا رسول الله ص أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك،فوقعت في سهم ثابت بن قيس بن شماس أو ابن عم له، فكاتبته على نفسي، فجئتك، أستعينك على كتابتي"، فرق رسول الله ص لحالها وعرض عليها أن يؤدي عنها كتابتها ويتزوجها ليرفع من شأنها ويعوضها خيرا مما فقدته من العز والشرف والسنا لأن بقاء مثلها عند أحد أفراد الجيش مما يزيد الأسى في نفسها، ومن ناحية أخرى ليعيد فإلى قومها العزة والكرامة، فكان زواجه فمنها سببا في إطلاقهم من قيود الأسر، وقد وقع ما أراده ففما أن تزوج جويرية حتى تسامع المسلمون بذلك، ففكوا جميع الأسرى الذين بأيديهم من بني المصطلق، وقالوا: "أصهار رسول الله ص"، وعادت الحرية إلى القبيلة بأكملها وصاروا محل عناية واحترام عند المسلمين.

وهكذا كان زواج رسول الله ص من جويرية بركة على قومها وعزا لها ورفعة لقومها من الهوان الذي لحقهم، وبذلك يمكن لنا أن نستجلي بعض الحكمة في زواجه فمنها (376).

ولقد كانت قصة الإفك فريدة في نوعها وضخامتها عن جميع المحن والمصائب التي واجهها رسول الله صفي هذه الغزوة وفي غيرها. لأنالرسول ص كان قد وطن نفسه لمواجهة كل بلية أو أذى يقوم به المنافقون لأنه على علم وبصيرة نافذة بمكايدهم وخستهم، إلا أنه لم يكن يتوقع منهم النيل من عرضه ورميه في أحب الناس إليه، لذا كانت حادثة الإفك لها أثرها ووقعها الثقيل على رسول الله ص، لقد جاءت هذه القصة تحمل في طياتها إبراز بشرية الرسول ص، وأنه يتأثر كغيره من بني الإنسان، وأنه لا يعلم الغيب وإنما الغيب لله وحده، إذ لو كان يعلم الغيب لجزم ببراءة ساحة أهله وكذب المفترين لأول وهلة، وأراح نفسه، وأراح غيره.

376) مرويات غزوة بني المصطلق وهي غزوة المريسيع ، ص 351

ولكنه مكث أكثر من شهر في قلق دائم والناس يموجون ويخوضون في ذلك وهو لا يزيد على أن يشاور أصحابه وأتباعه في شأن أهله، ويطلب من ينجده بإيقاف هذا الحادث الأليم، ثم في آخر المطاف يذهب إلى زوجه يقول لها:"يا عائشة لقد سمعت ما يقول الناس، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فتوبي إلى الله صإن الله يقبل التوبة عن عباده".

لقد كان هذا كله حاسما لما يخشى أن يقع فيه بعض المسلمين فيرفعون رسول الله صفوق منزلته التي أنزله الله إياها ويدعون له ما لم يدعه لنفسه فكانت هذه الواقعة واضحة الدلالة على مشاركة الرسول ص صغيره في البشرية، وأنه لا يعلم من الغيب إلا ما أطلعه الله عليه. وقد أوضح ذلك في قوله تعالى: إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا [سورة الجن: الآية 27]

وقوله: قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا [سورة الكهف: الآية 110]

وقوله: قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ۚ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ [سورة الأعراف: الآية 188].(377)

إن قصة الإفك كان من نتائجها البيان القاطع بأن الوحي ليس خاضعا لأمنية الرسول ص وإرادته، إذ لو كان لأمر كذلك، لكان من السهل عليه أن ينهي هذه المشكلة منذ نشأتها وطفولتها، ويريح نفسه من ويلاتها ونتائجها. وذلك بأن يأتي بقرآن يبرئ به أهله ويطمئن به أصحابه، ويسكت به أهل القيل والقال، لأنه كان يعلم من أهله الاستقامة والبعد عن هذه الجريمة الشنعاء ولكنه لم يفعل ذلك لأنه لا يملكه وإنما الوحي بيد الله وحده. وقد نفى الله عنه ذلك في أحد مواقفه مع المشركين.

قال تعالى: وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ۙ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ۖ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ [سورة يونس: الآية 15]

377) مرويات غزوة بني المصطلق وهي غزوة المريسيع ، ص 354

وقوله تعالى: وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (44) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (45) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (46) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (47) وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (48) [سورة الحاقة: الآية 44-47] وظل شهرا كاملا يحمل بين جنبيه الألم الشديد، من جراء هذه الكارثة الفادحة ويصبر نفسه على ذلك ويطلب الفرج من الله عز وجل.

وكان من تمام الحكمة الإلهية أن تأخر عنه الوحي هذه المدة كلها ليقضي الله أمرا كان مفعولا.

قال ابن القيم: "واقتضى تمام الامتحان والابتلاء أن حبس الوحي عن رسول الله ص شهرا، لا يوحى إليه في ذلك شيء، وذلك لتتم حكمته التي قدرها وقضاها وتظهر على أكمل الوجوه، ويزداد المؤنون الصادقون إيمانا وثباتا على العدل والصدق، وحسن الظن بالله ورسوله ص وأهل بيته، والصديقين من عباده.

ويزداد المنافقون إفكا ونفاقا، ويظهر لرسوله ص فوللمؤمنين سرائرهم إلى أن قال: فكان من حكمة حبس الوحي شهرا، أن القضية نضجت، وتمحصت واستشرفت قلوب المؤمنين أعظم استشراف إلى ما يوحيه الله إلى رسوله ص ففيها، وتطلعت إلى ذلك غاية التطلع، فوافى الوحي أحوج ما كان إليه رسول الله ص وأهل بيته والصديق وأهله وأصحابه المؤمنون،

فورد عليهم ورود الغيث على الأرض، أحوج ما كانت إليه، فوقع منهم أعظم موقع، وألطفه، وسروا به أتم السرور، وحصل لهم به غاية الهناء، فلو أطلع الله رسوله ص فعلى حقيقة الحالمن أول وهلة، وأنزل الوحي على على الفور بذلك، لفاتت هذه الحكم وأضعافها بل أضعاف أضعافها"(378).

وعن الحكمة في كون رسول الله ص لم يجزم ببراءة أهله كما جزم غيره من الصحابة(379) ، قال ابن القيم : "كان هذا من تمام الحكم الباهرة التي جعل الله هذه القصة سببا لها وامتحانا وابتلاء لرسوله ص، ولجميع الأمة إلى يوم القيامة ليرفع بهذه القصة أقواما، ويضع آخرين، ويزيد الله الذين اهتدوا هدى وإيمانا، ولا يزيد الظالمين إلا خسارا..." إلى أن قال: "وأيضا فإن رسول الله ص كان هو المقصود بالأذى والتي رميت زوجته، فلم يكن يليق به أن يشهد ببراءتها مع علمه أو ظنه الظن المقارب للعلم ببراءتها، ولم يظن بها سوءا قط، وحاشاه وحاشاها ولذلك لما استعذر من أهل الإفك، قال: "من يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهلي والله ما علمت على أهلي إلا خيرا، ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا،

378) زاد المعاد ، 127/2.
379) مثل ما قال أبو أيوب وزوجه ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم.

وما كان يدخل على أهلي إلا معي" فكان عنده من القرائن التي تشهد ببراءة الصديقة أكثر مما عند المؤمنين،

ولكن لكمال صبره وثباته وحسن ظنه بربه، وثقته به، وفّى مقام الصبر والثبات وحسن اعتناؤه بشأنه.

وأيضا: فإن الله سبحانه أحب أن يظهر منزلة رسوله وأهل بيته عنده وكرامتهم عليه، وأن يخرج رسوله ص عن هذه القضية، ويتولى هو بنفسه الدفاع والمنافحة عنه، والرد على أعدائه، وذمهم وعيبهم، بأمر لا يكون له فيه عمل ولا ينسب إليه بل يكون هو وحده المتولي لذلك(380).

---

380) زاد المعاد ، 127/2.